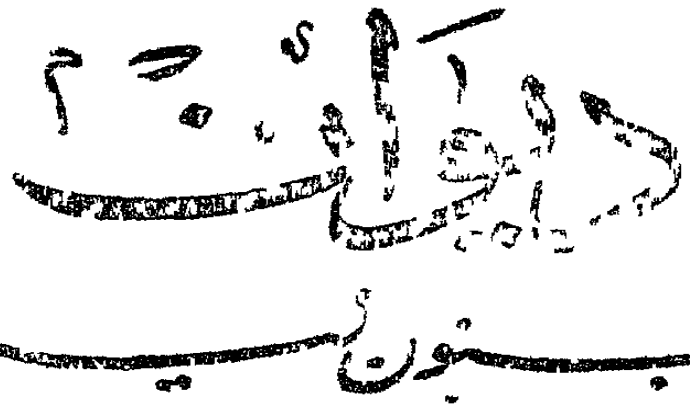

مجنون ليلى

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

هي قصة الحب العذري الخالدة التي تصور لنا الحب المثالي الطاهر
[illegible] مع تصوير دقيق لتلك العواطف والانفعالات والتقاليد
[illegible] في صورة أخاذة هي أشبه بأغنية حب
[illegible]

[illegible]

[illegible]

مجنون ليلى

كان فى زمن خلافة عبد الملك بن مروان رجل من أهل المفاخر وأصحاب المناصب والمآثر يقال له الملوح بن مزاحم ، وكان من سادات بنى عامر وله من الأولاد الذكور ثلاثة أنفار كأنهم البدور وكل بالأدب مذكور ومشهور ، ومنهم قيس وهو صاحب هذا الديوان الذى اشتهر بالعشق وحسن السيرة وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً ، وأفصحهم كلاماً وأجودهم نظماً ونثراً وأعلمهم بالأدب وأخبار العرب وكان مع هذه الأوصاف جميل المنظر عالى الهمة فصيح الكلام طويل القوام كأنه البدر التمام ، حافظ زمام الاحتشام قد نطق بالشعر وهو ابن سبعة أعوام وكان أعز أخوته عند أبيه نظراً لأوصافه وحسن مساعيه لأنه قد حاز جميع الصفات البديعة وحبيبته هى ليلى بنت المهدى تتصل بنسبه فى كعب بن ربيعة وكنيتها أم مالك بدليل قوله :

تكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت يوماً على تضيق

وكانت سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامه وكان سبب عشقه لها أنه ركب يوماً على ناقة له وخرج من الحى على سبيل النزهة والتسيير وعليه حلتان من الديباج والحرير فأقبل على بعض الغدران فوجد عليه جماعة من البنات والنساء فحياهن بالسلام وتكلم معهن بأفصح كلام فأعجبهن غاية الإعجاب واستدعينه للحديث والخطاب وكانت ليلى من جملتهن فنزل وجلس معهن وجعل يحادثهن ويقلب طرفه عليهن حتى وقعت عينه على ليلى فافتتن بها واندهش وخفق فؤاده وارتعش وقال لهن هل عندكن شىء من الطعام ، قالت لا يا ابن الكرام ، فعمد الى الناقة فنحرها وأضرم النار وأخذ يشاغلها بالحديث والأخبار ومناشدة الأشعار وهو شاخص فيها دون باقى النساء ثم قال لها أتأكلين الشواء قالت نعم أيها السيد المحترم ، فطرح الناقة على الجمر فى الحال وقد اعتراه الخبال وتضعضعت منه الأحوال من شدة الوجد والبلبال ، فقالت له ليلى انظر

إلى اللحم هل نضج أم لا ، فتقدم إلى الجمر وقبضه بكلتا يديه وسقط على وجهه الأرض معشياً عليه فأكل الجمر لحم راحتيه .

فلما رأته على تلك الحال مدت إليه ذراعها وشدت يده بهدب قناعها وعلمت أنه غرق فى بحر هواها وقد اشتهاها وتمناها ، فتغير لون وجهها من شدة الحياء وأقام قيس معهن كل ذلك اليوم إلى المساء ثم ذهب وهو على غير الاستواء من تباريح الوجد والهوى ، فلما جن الليل أخذ فى الافتكار وصرف ليلة بالبكاء ومناشدة الأشعار فمن ذلك قوله :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا ... لى الليل هزتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى الليل الذى هو جامع
إذا سر يوم من حيانى ولا أرى ... خيالك يالبلى فعمرى ضائع
تضيق على الأرض حتى كأننى ... من الصبر فى سجن فما أنا صانع

(قال الراوى) فلما كان ثانى الأيام استدعته للمنادمة والكلام وقد داخلها الحب والغرام لأنها كانت مغرمة بأحاديث الناس وأشعارهم وكان هو عارفاً بأيام العرب وأخبارهم فتمكنت بينهما المحبة والمودة حتى لم يستطع فراقها ساعة واحدة هذا ، هو المشهور فى كيفية عشقهما حسب ماذكرناه ، وزعم البعض أن سبب وقوع الهوى بينهما خلاف ما أوردناه وهو أنهما قد كانا صغيرين يرعيان الغنم بدليل قوله :

تعشقت ليلى وهى غر صغيرة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت إننا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

فتحابا ومضى على ذلك برهة وهما بأطيب عيش ونزهة ثم حجبت عنه كما سيأتى الخبر وجرى عليه مالم يجر على قلب بشر ، وعلى كلتا الحالتين عرف كل منهما ماعند الآخر ، وكان قيس يذهب فى كل يوم إلى بيتها فيقف عنده حتى يراها ، فيشكو إليها ماعنده من حبها وهواها ، ولم يكن دأبه إلا البكاء

والانتحاب ومناشدة الأشعار فى الليل والنهار ، وأقام أياماً لا يلذ له حال ولا ينعم له بال حتى اعتراه السقام من شدة الوجد والغرام .

(قال الراوى) ولما كان ذات يوم سألها قيس أمراً من الأمور لينظر هل له فى قلبها مثل الذى فى قلبه فمنعته حاجته وأظهرت النفور وكان قصدها بذلك امتحان الصحبة لترى ما عنده من المحبة فقال لها لقد أخلفت ماعهدته فيك ثم اصفر لون وجهه وكاد أن يتفطر وأنشد يقول :

مضى زمن والناس يستشفعون بى ... فهل لى إلى ليلى العداة شفيع
يضعفنى حبك حتى كأنى ... من الأهل والمال القليل نزيع
إذا ما بهانى العاذلون بجهلهم ... أتت كبدى مما أجن أطيع
وكيف أطيع العاذلين بحبها ... يؤرقنى والعاذلون هجوع

فلما سمعت شعره كذلك وأنشدت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً ... وكل عند صاحبه مكين
وأسرار الهوى تخفى ولكن ... تذيعها المدامع والأنين
وكيف يموت من هو فى الناس ... يرجى فى الحياة له الحنين
فطب نفساً بذلك وقر عيناً ... فكل فؤاد هواك فى قلبى مصون

فلما سمع منها ما سرّه وعلم أنها قد أسعفته قال :

أحبك حب لو تحبين مثله ... لعذرك من وجد على جزوع
وحبك مع الغزلان ما تشتهى ... تحوز وأما ليلة فأنيس
وما نفس حر لا يكون حوجة ... فتقضى الحوائج فهو يكون
وما ذكرتك النفس إلا تنفست ... وجرى لك الدمع الذى هو ماء
وما زرت أرضاً فيك إلا تأرجت ... كما فاح فى أيدى العروس خلوق
وما ذكرتك النفس إلا تنفست ... وجرى لك الدمع الذى هو ماء
وما زرت أرضاً فيك إلا تأرجت ... كما فاح فى أيدى العروس خلوق

تشكو ماله عندها من الشوق إلى رؤياه ، وأنها لا تميل إلى أحد سواه . فلما سمع كلامها طاب قلبه وزال غمه وكربه هذا وقد انتهيا بالحديث مع بعضهما البعض حتى امتلأ الإناء وصار السمن يقطر على الأرض ، وما زالا يتحدثان نحو ساعة من الزمان إلى أن غرقت أرجلهما بالسمن ولا يعلمان ، وكان أبوها قد استبطأها فصاح عليها وناداها فلم تنتبه إليه ولا ردت عليه ، فخرج ليكشف الخبر وقد أنكر أمرها فوجدهما على تلك الحالة المتقدم ذكرها ، فاستعظم ذلك الأمر ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار وحجبها عنه خوفاً من الفضيحة والعار ، فكان يغتنم غفلة الرقيب ويجتمع بها فيطفى ما بقلبه من نار اللهيب . فلما بلغه ذلك شكاه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وأعلمه بذلك الشان . فكتب إلى عامله الذى كان والياً على القوم يأمره بقتله إذا هو زارها بعد ذلك اليوم ، فلما قرأوا عليه الكتاب ووقف على حقيقة الخطاب فنهد وتحسر وأنشد وقال :

لئن حجبت ليلى وآلى أميرها على يميناً جاهداً لا أزورها
على غير شىء غير أنى أحبها وأن فؤادى عند ليلى يميرها

ولما يئس من زيارتها أخذه القلق والوسواس حتى أشرف على زوال عقله وصار مثلا بين الناس ، فأقبل عليه أبوه وبنو عمه وإخوته ومن يلوذ به من أهله وخلانه وقالوا له ياقيس اتق الله وأعرض عن هذه الجارية واسلها واعلم أنك إن دمت على هذه الحال أتلفت مهجتك ذهبوا ونساء العرب كثيرات وفيهن من تضاهى البدور الزاهرات فأحب من هى أحسن منها وإنك فى غنى عنها فقد هتكت حالك بين الأهل والخلان وصرت مثلا بين القبائل والعربان . فلما ألحوا عليه بالكلام قال دعونى ياقوم من العتب والملام فليس لا أختار امرأة عليها ولا أميل إلا إليها ثم أنشد :

تقول العدا لا بارك الله في العدا ... لقد قصر عن ليلى ورثت رسائله
ولو أصبحت ليلى تدب على العصا ... لكان هوى ليلى جديداً أوائله

وعند ذلك ساروا جميعاً وأتوا أبا ليلى وحدثوه بالقصة وأعلموه [illegible] ووقف قيس [illegible] القصة وسألوه القراءة وأقسموا عليه باسم الله أن [illegible] يعطيها إياه [illegible] التي [illegible] ودفعوا له مائة ناقة [illegible] [illegible] أحد غيري [illegible] (قال [illegible]) [illegible]

[illegible]

[illegible] صدره [illegible] الأحوال [illegible] ذلك [illegible] العمق [illegible] وكيف [illegible] يرش التراب على رأسه وقدميه [illegible]

أن وقع مغشياً عليه ، فتقدمت ورشت له الماء وقبلته بين عينيه ، فلما أفاق أنشد وقال .

ألا أيها القلب اللجوج المعذل ... أفق عن طلاب الخبد إن كنت تعقل
من قد أفاق العاشقون وإنما ... تماديك في ليلى ظلام مضلل
تعز تصبر واستعن بخلاله ... فصبرك فيما لا يدانيك أجمل
فلا كل ذي ود علمت مكانه ... وأنت بليلى مستهام موكل
تقول فؤادي ما اجتررت ملامة ... إليك ولكن أنت باللوم تعجل
أعلل نفسي بالحديث وبالمنى ... لعل إلى أيام ليلى تعلل
على الله من باع الخليل بغيره ... فقلت أحل حاشاك إن كنت تعقل
وقلت له بالله يا ليل إنني ... أبر وفي بالعهود وأوصل
فإن أك أذنبت ذنباً علمته ... ولا ذنب لي ليني فصفحك أجمل
وإن شئت قتلي فارضني خصومة ... وإن شئت قتلاً إن حكمك أعدل
وليل كمهر طال حتى ظننته ... وليس إذا ما جئ الباب أطول
تلبث الصباح الصادق دائماً ... وعيناه من رحد عليهن تهمل
ألا معشري سلمى إلى حين واصرفي ... إلى لكما عني بغير تعمل

ثم رجع من شعره اغرورقت عيناه بالدموع وأراد أن يختفي ثم لا يراه حتى قلب راجع وهو يبكي ويتهدد وقد عظم عليه الحال فقال

أيا راقد المشعوف بالله ناصري ... ومنقذي ممن يجور ويعتدي
أبا ليل المهموم والهائم الذي ... تراعى ثريا والخليون وهم
أطيل بك الليل الهائم وتحسر ... وأنثر كأساً منه بعد بعده
تجاذبني ليلى وفؤادي معذب ... بروحي تقضي ما تحب وتحكم
أيرضيك أن تكون بردة ... كلانا بها شاق ولا تتكلم
أيطلب ثأري قرن نصب ميم ... فهات يا ليلى برق ويرحمه

To: www.al-mostafa.com

صريع من الحب المبرح والهوى ... وأى فتى من علة الحب يسلم
بكى لى يا ليلى الفؤاد وإنه ... ليبكى ما يلقى الفؤاد ويكتم
لعمرك ما لاقى جميل بن معمر ... كوجدى بليلى لا ولم يلق مسلم
ولم يلق قابوس وقيس وعروة ... ولم يلقه قبلى فصيح وأعجم
صبا يوسف واستشعر الحب قلبه ... ولا كاد داود من الحب يسلم
وبشر وهند ثم سعد ووامق ... وتوبة أضناها الهوى المتقسم
وهاروت لاقى من جوى الحب علة ... وماروت فاجأه البلاء المصمم
ولم يخل منه المصطفى سيد الورى ... أبو القاسم الزاكى النبى المطهر
أبيت صريع الحب دام من الهوى ... ودمعى على جسمى يموج ويسجم
ولولا طروق الليل أودت بنفسه ... منعمة اللحظين تبرى وتسقم
يذاهى زادت فى النوى زادفى الهوى ... مللا قلبه يسلو ولا هى ترحم
أعارت أنفاس الصبا بك صبوة ... فها بين جنبيه سعير مضرم
ألا أن دمع الصب عما يجنه ... وإن لم يفه يوماً به متكلم
لسانى عيى فى هواى وهو ناطق ... ودمعى فصيح فى الهوى وهو أعجم
وكيف يضيق الصب كتمان سره ... وهل يكتم الوجد امرؤ وهو مغرم

[قال الراوى] وأقام قيس بعد ذلك أياماً وهو يكابد ألم الفراق وفى ذات يوم ركب ناقته وصار طالباً زيارة ليلى فى ذلك المكان، فوجد الحى خالياً من السكان لا يسمع فيه صوت إنسان سوى صياح البوم ونعيق الغربان فجعل يمضى إلى مواقد النيران ويتأمل فى تقلبات الزمان، فعند ذلك زادت به الأشجان فجال فى تلك الديار قفاراً وبكى بكاء مراراً وأنشد:

ألا حبذا ساعى الهوى حين يرحلوا ... وساروا بليلى والكواكب طلع
فيا ليلى كم قد أبصرت ... وعرصاتها فى سائر الدهر تقنع
وربع خلت منها الطيور فما بها ... طير بيكيها وعاير يسجع
أمرض منى حبها وطلابها ... فيا للعدا من صبوة كيف أصنع

أأتبع ليلى حيث راحت وخيمت وما الناس إلا آلف ومودع
فإن يك جثماني بأرض بعيدة فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
ألا تتقين الله في قتل عاشق له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بديارکم وكل غريب الدار بالشوق مولع
فأصبحت مما أوقع الدهر موجعاً وكنت لريب الدهر لا أتضعضع
قنعت بلحظ منك ليلى وإنما ينال المنى من كان باللحظ يقنع
أبيت بروحاء الطريق كأنني أخو خبل أوصاله تتقطع

(قال الراوي) فبينما هو على تلك الحال وإذا براع يرعى غنمه في ذلك الحي فقصده حتى وصل إليه فسلم عليه وسأله عن أخبار القوم فقال له: رحلوا إلى جبل توباد في صباح ذلك اليوم، فسار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد وكان ذلك الوقت في آخر النهار فوجده خالياً من الرجال ليس فيه إلا النساء والبنات الأبكار، وبلغ ليلى قدومه من بعض الجواري فداخلها الفرح والاستبشار فخرجت إلى مسقاه وهي لا تصدق أن تراه، فلما وصلت إليه سلمت عليه فابتهج وانشرح وكاد يطير من الفرح وأخذ كل منهما يشكو ما هو فيه من ألم الفراق والهوى وتباريح الوجد والجوى، ثم قالت له في آخر الكلام كيف كان صبرك عني يا قيس في هذه الأيام، فقال لها والله يا مهجة القلب والروح إنني بين جنبين ليس لي عنك صبر ولا سلوان وقد أقلقني الوجد والهيمان من كثرة الأفكار وسهر الليل والنهار حتى لم يبق لي هدوء ولا اصطبار ولا أقمت في مكان وفي قراري وما تركت زيارتك إلا خوفاً عليك من الأعداء اللئام الذين ليس همهم ولا ذمام، وإن زيارتك تنجلي همومي وتنقضي غمومي وتنشرح صدري وتصفو مرآة فكري ثم بكى وأنشد يقول:

أيا نسم رند البين يقدح في صدري ونار الأسى ترمي فؤادي بجمر
فوالله ما أنساك ما هبت الصبا وما ناحت الأطيار في وضح الفجر

وما نطقت بالليل سارية القطا وما صدحت فى الصبح غادية الكدر
وما لاح نجم فى السماء وما بكت مطوقة شجواً على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق وما هطلت عين على واضح النحر
فأقسم لا أنساك ما ذر كوكب وما خب آل فى معلمة قفر

فلما سمعت منه هذه الأبيات بكت وضمته إلى صدرها وأنشدت :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقنى حلول بقلبى من هواك قديم
ويثنى جفاك النوم من كل لذة ويقلقنى ذكـــراك وهو عظيم

ثم ودعها وسار خوفاً من قدوم الرجال وفى رجوعه إلى أهله أنشد وقال :

حلا ذكر الأحبة فى فؤادى فهمت من الغرام بكل واد
وقد باحت بأسرارى دموعى وجفنى قد جفا طيب الرقاد
وكم ناديت بين خيام ليـــلى وكم فى حبها مثلى ينادى
أنا المضنى فجودى لى بوصـــل فقد زاد السقام إلى السهاد
وكم أجريت يوم البين دمعـــاً على الخدين كالسحب الغوادى
فما أحلى التهتك فى هواهـــا حماها الله من كيد الأعادى
عسى بالوصل أحظى قبل موتى وأفرح باللقا بعد البعـــاد

﴿ وقال أيضاً ﴾

إذا نظرت نحوى تكلم طرفها فجاوبها طرفى ونحن سكوت
ولو خلط السم المـــذاب بريقها وأسقيت منه نهلة لبريت

﴿ وقال أيضاً ﴾

ولو شهدتنى حين تأتى منيتى جلا سكرات الموت عنى كلامها
فبالبقا نحيا جميعاً وإن نمت تجاور فى الملكى عظامى عظامها

(قال الراوى) وجد قيس فى قطع الطريق وهو مسرور بذلك متوفق حتى أقبل إلى الديار والشوق فى قلبه كلهيب النار، فلما دخل إلى الخيام قدمت له أمه شيئاً من الطعام فأبى ولم يأكل ولا عرفت عينه المنام بل مضى ليله

فى البكاء والنواح إلى أن بدت غرة الصباح ، فلما رآه أبوه على تلك الحال وقد تغير جسمه واعتراه الهزال رثى لحاله وخاف من انزعاج باله وقال يا ولدى ويا مهجة كبدى ارجع عن هذا الأمر واقبل النصيحة فقد هتكت نفسك وصرت مثلا بين الورى وأحدوثة لكل من يسمع ويرى ، فكم قد نصحتك وأنت لم تسمع وأردك فلم ترجع وكل ذلك من أجل جارية من بنات العرب وهى دونك فى الحسب والنسب ، وأنا أشير عليك الآن ألا تذكرها بشفة ولا بلسان فإن حديثك قد شاع بين جميع العربان واشتهر فى كل مكان ، فاذكر الله وتب إليه مما أنت عليه . فلما سمع من أبيه ذلك الخطاب تغلب عليه الحزن والاكتئاب وقال له كلما حدثتنى بهذا الكلام ازداد بى العشق والغرام ثم هاجت به الأشواق وغلبت عليه غصه الفراق ، فبكى وانتحب وفاض دمعه وانسكب ، واشتعل قلبه والتهب وأنشد يقول :

وكم قائل لى اسل عنها بغيرها ... وذلك من قول الوشاة عجيب
فقلت وعينى تستهل دموعها ... وقلبى بأكناف الحبيب يذوب
لئن كان لى قلب يذوب بذكرها ... وقلب بأخرى إنها لقلوب
فيا ليل جودى بالوصال فإننى ... بحبك رهن والفؤاد كئيب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها ... من الوجد قد جادت عليك تذوب
وألقى من الوجد المبرح سورة ... لها بين جلدى والعظام دبيب
وأنى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب

(قال الراوى) فبكى أهله رحمة له وطلبوا من الله أن يعافيه مما ابتلاه ، فلما سمع كلامهم تنفس الصعداء وتنهد وأشار إليهم وأنشد :

لقد لامنى فى حب ليلى أقاربى ... أبى وابن عمى وابن خالى وخاليا
يقولون ليلى أهل بيت عداوة ... بنفسى ليلى من عدو ومالياً
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها ... بشىء ولا أهلى يريدونها ليا

فليت نسيم الريح أدى تحيتى ... إليها وما قد حل بى ودهانيا
فيا عجباً من يلوم على الهوى ... فتى دنفاً أمسى من الصبر عاريا
وهيهات أسلو من الوجد والهوى ... وهذا قميصى من الحزن باليا
معذبتى لولاك ما كنت هائما ... أبيت سخين العين حيران باكيا
أبيت ضجيع الهم ماطعم الكرى ... أنادى إلهى قد لقيت الدواهيا
بساحرة العينين كالشمس وجهها ... يضىء سناه فى الدجى متساميا
خليلى مدا لى فراشى وارفعا ... وسادى لعل النوم يذهب مابيا
وإن مت من داء الصبابة بلغا ... نتيجة صوم الشمس منى سلاميا

(وقال أيضاً)

ما بال قلبك يامجنون قد هاعا ... فى عشق من لا ترى فى وصلها طمعا
يقول صحبى ودمع العين منحدر ... سيلا على الخد هطالا ومندفعا
طالما أبكى ولم أسمع بمنزلة ... هذا البكاء لصب مرجع فجعا
قلت كفوا إن القلب ريحكم ... لو كان صخرة صماء لا نصدعا
طوبى لمن أنت ياليلى قرينته ... لقد نفى الله عنه الهم والوجعا
فما تقرأت كتاباً منك يبلغنى ... إلا ترقرق دمع العين وانهدعا
دعوا إلى هجرها قلبى فيتبعنى ... حتى إذا قلت هذا صادق نزعا
لا يستطيع نزوعاً عن مودتها ... أو يصنع الوجد فيها غير ماصنعا
كم من وفى لها قد كنت أتبعه ... ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا
تزيدنى كلفا فى الحب إن منعت ... أحب شىء إلى الإنسان مامنعا
وهاتف من فنان الأيك أزعجنى ... بصوته فى ظلام الليل حين دعا
كأن عينيه من حسن احمرارهما ... فصان من حجر الياقوت قد قطعا
يدعو حمامته طير وقد هجعت ... والله ما هجعت عين وما هجعا
كأنه راهب فى رأس صومعة ... يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

أو قس دير تلا مزماره سحرا ... ما زال مذكان طفلا يسكن البيعا
فالريح تخفضه حيناً وترفعه ... قد كان يخفضها طوراً ويرتفعا
فقلت ياطير ماهذا البكاء وقد ... قل العزاء وأبدى القلب ماجزعا
إن طرت طار معى كى لا يفارقنى ... وإن أراد وقوعاً قلبه وقعا
وقد دعانى به ريب المنون ولم ... ترجع إلى وكل الطير قد رجعا
وكل إلف يبكى إلف صاحبه ... عند الفراق بوجد قط ما فجعا
وكنت أبكى ونار الرجد تقلقنى ... حتى رأيت عمود الصبح قد سطعا
فالحمد لله أبكانى وأضحكنى ... والحمد لله شكراً للذى صنعا
احفظ صديقك لا تقطع مودته ... لا بارك الله فيمن خان أو قطعا
إن المنازل تبنى بعد ما خربت ... وليس يوصل رأس بعد ماقطعا
إزرع جميلا ولو فى غير موضعه ... فلا يضيع جميل أينما زرعا

(وقال أيضا)

ولو أن مابى بالحصى حق لحصى ... وبالريح لم يسمع فحن هبوب
ولو أن مابى بالجبال لهدمت ... وكاد جلاميد الصخور تذوب
تذكرنى ليلى على بعد دارها ... وليلى قتول للرجال خلوب
فويلى على العذال ما يتركونى ... بغمى أما فى العاذلين نيب
فإن عشت لا أبغى سواك وإن أمت ... فما موت مثلى فى هواك عجيب
ولو أننى أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب على ذنوب
فدومى على عهدى وأنت بزائل ... عن العهد مكم ما أقام عسيب

(قال الراوى) وما زال قيس على مثل هذا الشأن مدة من الزمان ، وهو يكابد الوجد والهيمان ، وقد تسلطت عليه الهموم والأحزان وكان كثيراً مايجول فى الفلوات يندب ندب الثاكلات ، ويمر بين أشجار الغضا ويتوغل فى الفلا والفضاء ، حتى صار فى حالة الذل والويل من كثرة البكاء

وسهر الليل واتفق أنه مر يوماً فى بعض الكثبان فرأى أن رجلا نصب شركاً لصيد الغزلان ، فدنا منه وحياه بالسلام وقال له عندك شىء من الطعام فقال إنى بعيد الديار مسافة نصف نهار ، وقد نصبت أشراكى فى هذه الربى فاصبر قليلا واطرد على الظبا ، فان اصطدنا بلغنا المراد وسددنا رمق الفؤاد ، لأنى من نحو يومين ما استطعمت بزاد ، فبينما هو عنده إذ وقعت بالشرك ظبية فوثب قيس إليها وقبلها بين عينيها ثم أطلقها وأشار يقول :

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى ... لك اليوم من دون الوحوش صديق
وياشبه ليلى لو توقفت ساعة ... عليها سحاب هاطل وبروق
وياشبه ليلى لو توقفت ساعة ... لعل فؤادى من جواه يفيق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها ... فأنت لليلى إن شكرت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... سوى أن عظم الساق منك دقيق
تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يوماً على تضيق
تتوق إليها النفس ثم أردها ... حياء ومثلى بالحياء خليق
ولو تعلمين الغيب أيقنت أننى ... حبيب وانى للحبيب مشوق
أروم سلو النفس عنك ومالها ... إلى أحد إلا إليك طريق

فاستشاط الصياد غضباً وتغيرت منه الأحوال واعتراه الانزهال ، وقال ياهذا ماهذه الفعال التى لم يسبق إليها أحد من الجهال ، فقد من الله علينا بما كنا نتمناه ، فأحرمتنا إياه ، فقال له قيس وقد اشتد به جواه وعظم مصابه وبلاه ، لا تلمنى فإن عينيها تشبه عينى من أهواه ، ثم تركه وسار يجول فى تلك القفار ، وإذا به يرى ظبية أخرى فأسرع نحوها وقبض عليها ومسح التراب عن وجهها وقرنيها وبعد ذلك أطلقها وأشار يقول :

اذهبى فى حراسة الرحمن ... أنت منى فى ذمة وأمان
لا تخافى ولا تخافى بسوء ... ماتمنى الحمام فى الأغصان

(وقال أيضاً)

أقول لطبيبي مربي وهو رائع ... أأنت أخو ليلى فقال يقال
أيا شبه ليلى إن ليلى مريضة ... وأنت صحيح إن ذا المحال

(قال الراوى) وكانت ليلى قد مرضت مرضاً شديداً، فلما بلغه الخبر خفق فؤاده وتكدر، وأخذه القلق والضجر، وأنشد يقول:

يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فيالك لا تضنى وأنت صديق

(قيس وليلى يتناجيان) بريشة أمير عباس

فى الله مرضى بالعراق فإننى ... على كل مرضى بالعراق شفيق
فإن تك ليلى بالعراق مريضة ... فإنى فى بحر الغرام غريق
أهم بأقطار البلاد وعرضها ... ومالى إلى ليلى الغداة طريق
كأن فؤادى فيه نار تضادمت ... وفيه لهيب ساطع وبروق

إذا ذكرتها النفس ماتت صبابة ... لها زفرة قتالة وشهيق
سبتنى شمس تخجل الشمس نورها ... ويكسف ضوء البدر وهو شروق
غرابة الفرعين بدرية النسا ... ومنظرها بادى الجمال أنيق
وقد صرت مجنوناً من الحب هائماً ... كأنى عان فى القيود وثيق
برى حبها جسمى وقلبى ومهجتى ... فلم يبق إلا أعظم وعروق
فلا تعدلوا بل إن هلكت ترحموا ... على فقد النفس ليس يعوق
وخطوا على قبرى إذا مت أسطراً ... قتيل لحاظ مات وهو عشيق
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ... بليلى ففى قلبى جوى وحريق

(وقال أيضاً)

ألا إن ليلى بالعراق مريضة ... وأنت خلى البال تهنو وترقد
فوكيف يا مجنون تضنى من الهوى ... لبيت كما بات السليم المسهد

(قال الراوى) ومر رجل ذات يوم بليلى وهى واقفة على باب خبائها وهى قد تعاقت من عياها ، فقالت له ياهذا إلى أين أنت سائر ؟ فقال لها إلى ديار بنى عامر ، فنهضت وبكت وأنت واشتكت وأنشدت تقول :

يا أيها الراكب المزجى مطيته ... عرج لأنبىء عنى بعض ما أجد
فما أرى الناس من وجد تضمنهم ... إلا وجدى بقيس موقداً وجدو
هوى زمانا وإنى فى مودتها ... ورده إلى آخر الأيام احتهد

(قال الراوى) فاشفق الرجل عليها وتقدم إليها وقال لها حياك الله ياحرة العرب من أنت من صبية ما إن كنت من أهل المروءة وكرم الأخلاق والفتوة وعمن هى هذه الشعور واجر كسر فى الملهوف وهو أنك متى وصلت إلى [illegible] وقت [illegible] من المنوح بن مزاحم فمتى اجتمعت به أقرئه منى السلام وقل له إنه عمك يقول لك أضناها السقام من شدة الوجد والغرام

وهى لا تلتذ بطعام ولا تذوق أجفانها المنام وقد سارت ميلا بين النساء فى سائر الأنحاء ثم كتبت له رقعة ضمنتها هذه الأبيات :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمت بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى ... لهم غرضاً أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا ... بجسمى من قول الوشاة كلوم

فسار الرجل طالباً حى بنى عامر حتى وصل إليه واستدل على قيس فدلوه عليه فحياه بالسلام وحدثه بما قالته ليلى على المنام . فلما سمع قيس شعر ليلى أن أنين الثكلى ثم تنهد من فؤاده متبول وكتب اليها مع ذلك الرجل يقول :

وأنت التى كلفتنى دلج السرى ... وأحدثت جرح القلب وهو كليم
وأنت التى قطعت قلبى صبابة ... ورقرقت دمع العين وهو سجوم
وأنت التى أغضبت قومى فكلهم ... بعيد الرضى دانى القطوف كظيم

ثم خرج تجول فى نواحى ذلك الوطن إذ مر به سرب من القطا وما زال أنشد يقول :

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن لى ... فقلت ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من معير جناحه ... لعلى إلى من قد هويت أطير
وأى قطاة لم يعرنى جناحها ... فعاشت بصبر والجناح كسير
وإلا فمن هذا يؤدى رسالتى ... فأشكره إن المحب شكور
إلى الله أشكو صبوتى بعد كربتى ... ونيران شوقى ما بهن فتور
فإن لم أمت هما وغما وكربة ... يعاودنى بعد الزفير زفير
إذا جلسوا فى مجلسى هدروا دمى ... فكيف تراها عند ذاك تجير
ودون دمى هز الرماح كأنها ... توقد جمر ثاقب وسعير
أرى النوم يأتى دون ليلى كأنما ... أتى دون ليلى حجة وشهور
فكم أسيراً مستهاماً وإنه ... إلى ذاك منكم فارحميه فقير

طوت أم عمرو بعد نأى ركابها ... وبان افتراقى والذين أزور
وحالت جبال البعد بينى وبينها ... وهيهات مقصوص الجناح يطير
قطعن الحصى والرمل حتى تفلقت ... قلائد فى أعناقها وظفور
سلوا أم عمرو هل ينول عاشق ... أخو سقم أو هل يفك أسير
ألا قل لليلى هل تراها مجبرتى ... فإنى لها فيما لدى مجير
أظل بحزن أن تغنت حمامة ... من الورق مطراب الصبى بكور
بكت حين در الشوق لى وترنمت ... وأرقنى نوح لها وهدير
أيذهب عقلى بعد حلمى وقد علا ... عذارى من لون الشباب قتير
ومستجهلى بعد التحلم نسوة ... أشار بليلى نحرهن مشير
تعودن قتل المسلمين كأنما ... لهن دماء المسلمين طهور

(قال الراوى) ثم مضى على وجهه وأوسع فى القفار فبينما هو يدور إذ طار يحاوب بعضه بعضاً على غصون الأشجار فناداها وأنشد يقول

ألا ياحمامات الحمى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حنون
فعدن فعدن حسن تشقون ... وسدت بأسرار لهن امين
وعدن يفرقن الهدير كأنما ... ثمرين مداماً أو بهن حزون
فمن عينى مثلهن حمائماً ... سكبن فمن تدمع لهن عيون
وأصحن قد قرقرن إلا حمامة ... هى مثل نوح الثاكلات أنين
تذكرنى ليلى على بعد دارها ... وراجف قلب بات وهو حزين
فبالبت ليلى بعضهن وليتنى ... أطير ودهرى عندهن أنور

(وقال أيضاً)

أجبنك يا حمامات الطوق ... وقد ديجت ذا قوة حزينا
أعرك يا حمامات طريتى ... بأنى لا أنام وتهجعينه
وبن فى الشكاة أقرب حقه ... رمت فى شكاتك تكذبينا

وإنى قد برانى الحب حتى ضنيت وما أراك تغيرينا
أراك الله فى محلك السلامى إلى من بالحنين تشوقينا
ولست وإن حننت أشد وجداً ولكنى أسر وتعلنينا
وفى مثل الذى بك غير أنى أحل عن القتال وتعقلينا
أما والله غير قلى وبغض أسد ولم أزل جزعاً حزيناً
لقد جعلت دواوين الغوانى سوى ديوان ليلى محلينا
فقدما كنت أرجى الناس عندى وأقدرهم على ما تطلبينا
ألا لا تنسين روعات قلبى وعصيانى عليك العاذلينا

فبينما هو على مثل ذلك هبت ريح من نحو أرض نجد فراح به الغرام والوجد كل مذهب وقال :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد وقد زادنى مسراك وجداً على وجد
رعى الله من نجد أناساً أحبهم ولو نقضوا عهدى حفظت لهم ودى
سقى الله نجداً والمقيم بأرضها سحاب غوادٍ خاليات من الرعد
إذا هتفت ورقاء فى رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الوليد ولم أزل جليداً وأنديت الذى لم أكن أبدى
وأصبحت قد قضيت كل نباله نوازع شوق مستفاد إلى نجد
وإن قربت دار بكيت وإن نأت كلفت فلا القرب أسلو ولا البعد
ألا حبذا نجد وطيب ترابه وأرواحه إن كان نجد على البعد
إذا وعدت زادا هوى لانتظارها وإن بخلت بالوعد مت على الوعد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وإن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس له ود

ثم مر به غراب فخفق فؤاده واضطرب وعظم عليه الحزن والكمد وقال

ألا ياغراب البين هيجت لوعتى فويحك خبرنى بما أنت تصنع

أبالبين من ليلى فإن كنت صادقاً ... ولا زال عظم من جناحيك يفسخ
ولا زال رام فيك فوق سهامه ... ولا أنت في عيش ولا أنت تفرخ
ولا زلت من عذاب المياه مقراً ... ووكرك مهدماً وبيضك يرضخ
فان طرت أردتك الحتوف وإن تقع ... تقيض ثعبان بوجهك ينفخ
وعابنت قبل الموت لحمك مشدخاً ... على جمر حر النار يشوى ويطبخ
ولا زلت في شر العذاب مخلداً ... وريشك منتوف وجلدك يسلخ

(قال الراوى) ولما جن عليه الظلام ارتد راجعاً إلى الخيام وبات في غلق شديد وغم ما عليه من مزيد . ولما كان الصباح رجع إلى ما كان عليه من البكاء والنواح وقال وما زال على تلك الحال حتى ضعف جسمه واعتل ، وكاد عقله من شدة الوسواس أن يختل وباع لبلى الخبر وأخذها القلق والضجر ، واصفر لونه وحار وتغير . وفاض دمعها على خديها وانحدر ، وانصبت على البكاء والسهر وجرى عليها ما لم يجر على تائب وشمر فكتبت إليه مع من تعتمد عليه أيها الحبيب والسيد الأديب مهجة الفؤاد وزينة الأمجاد ، يا من سلك طريق الكمال وحسن الخصال وحفظ العهود والذمام والمحبة الصحيحة الخالية من الآثام ، لقد بلغني ما أنت فيه من الشوق والغرام والوجد والهيام ومكابدة السهر وهجران الطعام واحتمال كلام اللوام حتى اعتراك الهزال وصرت ناحلا كالخيال وحيث الحالة هذه فاحضر في نصف الليل إلى وادي الأراك وانا أوافيك إلى هناك ولو خاطرت بنفسي في هواك فلا يساوي لذة رؤياك وختمت كلامها بهذين البيتين :

يا مهجتي أنت مقصودي ومطلوبي ... وأنت رغماً عن الأعداء محبوبي
إن تحتجب عن عيون الصب يا أملي ... ما أنت عن قلبي المضنى بمحجوب

(قال الراوى) ولما بلغ قيساً هذه الرسالة ووقف على فحوى تلك المقالة انشرح صدره واستراح وخفت عنه بعض الأتراح وأنشد وقال :

تعود مريضاً أسقمته بهجرها ... ولو عاودته عاد لا يعرف السقما

أضرمت بالقلب ناراً من الجوى فما تركت عظما ولا تركت لحما
وإنى على هجرانها وصدودها وما حل بى منها أرى حبها حتما
خليلى كما لا تلوما متيما ولا تقتلا صبا بلومكما ظلما

(قال الراوى) ثم انه قصد ذلك المكان وفى قلبه لهيب النيران إلى أن وصل إلى تلك الأرض عند إقبال الظلام ، فجلس وهو يتأمس فى الربى والآكام إلى أن انتصف ظلام الليل وخلا نجم سهيل ، فعند ذلك زاد به القلق والسوت والأرق . فارتعس فؤاده وخفق ووقع على وجه الأرض وشهق ، وإذا بليلى قد أقبلت فتقدمت إليه وسلمت عليه وقبلته فى عارضيه وبين عينيه ، فلما رآها فرح و ... بسر وزال عنه الغم و الضجر فنهض فى الحال وجلس وردت روحه إليه بعد أن كان على آخر نفس لأن العاشق لا يبرأ إلا بنظر الحبيب إذ رآه ذهب ما بقلبه من اللهيب . ثم قالت له لقد بلغنى ما أنت به من الهم والحزن حتى ضعف جسمك وتغير لون وجهك بعد ذلك الحسن وذلك كله لأجلى فلا كنت أنا ولا كان أهلى . فقال لها وحق من يقول للشىء كن فيكون إننى منذ فارقتك للآن لم تغمض لى جفون ، بل كنت أهيم مع الوحوش فى البرارى و قفار أشد الأنسار وأقتفى الآثار وألقى نفسى فى المهالك والأخطار وأصل الليل بالنهار ، ولا يطيب لى عيش ولا يقر لى قرار . حتى نفرت الآمال منى وانقلبت القلوب عنى وكنت كلما ذكرتك خفق فؤادى وغاب رشادى وتلمل خاطرى واشتعلت سرائرى إلى أن اضمحل جسمى من الهزال وداب من شدة الوجد والبلبال لأن ملك الهوى عنيد وقيده أشد من سلاسل الحديد والآن قد انجلت عن قلبى الكروب وانشرح صدرى برؤيتك بعد أن كان متعوب ، ثم غلب عليه جواه وتذكر ما قاساه فتأوه وتنهد وأشار إليها وأنشد :

فوالله لا أدرى علام هجرتنى وأى أمور فيك يا ليل أركب

أقطع حبل الوصل فالموت دونه ... وأشرب كأساً علقما ليس يشرب
فلو كان لي قلبان عشت بواحد ... وأبقيت قلباً في هواك يعذب
رمتني يد الأيام عن قوس محنة ... لا العيش يصفو لي ولا الموت يقرب
كعصفورة في كف طفل يسومها ... تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ... ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

(قال الراوي) فلما انتهى قيس من أبياته تساقط دمعه على وجناته فقالت له جزاك الله خيراً ولا أراك سوءاً ولا ضيراً . ثم فاضت عيناه بالدموع وتنفست من فؤاد موجوع وأنشدت :

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى ... بأرعن ركناه صفا وحديد
تقطع من وجد وداب حديده ... وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة ... أموت وأحيا إن ذا لشديد

(قال الراوي) ثم أنها حدثته بحالها وما أصابها من أجله وكيف خطر ببالها محبة فيه وأنها تحبه وتشتهيه . قال وما زال قيس يحادث ليلى ويتذكر معها العطر إلى أن مضى وقت سحر ولاح ضوء النهار وظهر بعد ذلك ودعته ورجعت على الأثر خوفاً من أن يراها أحد من البشر . ورجع هو يطلب طلاله والديار وفي قلبه من أجلها لواعج من نار وهو ينشد ويقول :

لقد أرسلت ليلى إلي رسولها ... بأن آتها سراً إذا الليل أظلما
خشيت على خوف وكنت معوذاً ... أحاذر أيقاظاً عداة ونوما
فمت ومئات لا يهم بريبة ... ولم تتبع يا صاح والله محرما
وكيف عزائي قلبه عنك بعدما ... وقد أورثت في الصقاب دامكتما
هو أبهى تدعو الخريدة حبها ... وهو كلمت ميتاً إذا ما تكلما
ولو مسحت بالكف أعمى لأبصرت ... عماه وشيكاً ثم عاد بلا عمى
وهمة تسبي الحليم برجحها ... تزين منها عفة وتكرما

تلك التي لو كان داء دواؤه وهاروت كل السحر منها تعلما

(وقال أيضاً)

سأبكي على ما فات مني صبابة وأندب أيام السرور الذواهب
ولا تنع عيني أن تجد بغيركم وإني وإن جانبت غير مجانب
وخير زمان كنت أرجو دنوه رمتنا عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرجوها وكنت محبداً فصبراً على مكروهها والعواقب

(وقال أيضاً)

عسى من لا ذنب لي أن أهاجره ومن أنا في اليسور وا مسر ذاكره
عسى أحلام أجبت من لا يحبني وبغضت من قد كنت حيناً أعاشره
ألا يشتهي نفس أم تسعد النوى ونحوي فؤادي لا تباح سرائره
أحبك يا ليلى على غير ريبة وما خير حب لا تعف ضمائره
وقد كان قلبي في حجاب يكنه فحبك من دون الحجاب يباشره
أصد فيهاج بي لهوى رقيبك من لولاه عدو أحاذره

(وقال أيضاً)

بصاه أكرمها الكريم كأنما قمر توسط حفنة ليس أسود
مرسومة بالحسن ذات حواسد إن الحسان مظنة الحسد
ترى ساعديها ترتق مقلة سوداء ترغب عن سواد الإثمد
عود إذا كثر الكلام تعوذت بحمى الحياء وان تكلم تقصد

(وقال أيضاً)

عسى ليلى بعد نأي لا يس طوال الليالي من قفول إلى بعد
ألا ليتني أرتاح واعترف سحر إلى يوم القيامة والوعد

وما ذنب حبيبك يا ليلى حبه وشوقه إلا ليسمر حتى علاه الليل واس ونرك محادثة
من يخرج عن حد القياس فكلا لا يلبس قمصاً إلا حرقه ولا ثوباً إلا مزقه

وكان كثيراً ما يطوف فى البرارى والهضاب ويكتب الشعر بإصبعه فى الأرض على التراب ودمعه يجرى على خديه مثل قطر السحاب ، فلما طال عليه الحال رقت له قلوب الرجال وأقبل منهم جماعة على أبيه وقالوا له أخرجه إلى مكة يطوف بالبيت لعل الله يعافيه وعن حب ليلى يسليه فأجابهم إلى ذلك وامتثل وسار إلى مكة على عجل فلما قدموا به قال له أبوه يا قيس تعلق بأستار الكعبة ففعل فقال اللهم يا من احتجب عن عيون العالم مما كان وما يكون أرحه من حب ليلى وأزل عنه هذا الجنون ، فقال قيس أيها الإله الحى القادر على كل شىء إنى تائب إليك من جميع الخطايا والذنوب إلا عن حب ليلى وذكرها فإنى لا أتوب ، ثم تأوه وتنهد وتنفس الصعداء وأنشد :

دعا المحرمون الله يستغفرونه ... بمكة شعثاً كى تمحى ذنوبها
وزدت : يا رحمن . أرض لنفسى ... ليلى ثم أنت حسيبها
يقولون تب عن حب ليلى وذكرها ... وتلك لعمرى توبة لا أتوبها
يقر لعينى قربها ويزيدنى ... بها عجباً من كان عندى يعيبها
فيا ناس عيراً أنت بالحب ليلى ... بأول نفس غاب عنها حبيبها

ولما سمع أبوه هذه الأبيات سهلت عليه العبرات ثم أخذه بيده إلى محفل من الرجال يسألهم أن يدعو له بالفرج والخلاص من هذه الحال ، فلما أخذ الناس فى الدعاء له أنشد وقال :

ذكرتك والحجيج له ضجيج ... بمكة والقلوب لها وجيب
ففاضت وهن قد حرم حرام ... به منه أحلت لها القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما ... جنيت فقد تكاثرت الذنوب
وإنى عن هوى ليلى لباكى ... ربوعها فإنى لا أتوب
فكيف وعدتنى يا ليل أنى ... أتوب إليك منها أو أنيب

ولقد أوصى أبوه له ترك الدعاء والحرم والتزم وقصد البرارى والأكم

فتبعه أبوه وجماعة من قومه حتى أدركوه . وأرادوا أن يربطوه بالحبال ويكتفوه ، فقال لهم بالله عليكم تمهلوا على قليلا فإن قلبي أضحى عليلا ثم صاح صيحة عظيمة وأنشد يقول :

أحقاً عباد الله أن لست صادرا ... ولا وارداً إلا على رقيب
ولا جالساً وحدى ولا فى جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب
وكيف أعزى القلب بعد فراقها ... وأنى على طول الزمان حبيب

(وقال أيضاً)

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون فعظمه ... كسير وفقد الوالدين عظيم
بكت كبدى من فقدها وتهللت ... دموعى كماء طل فهو سجوم
وإن زماناً فرق الله بيننا ... وبينك ياليلى فذاك مشوم
دعونى فما عن رأيكم كان حبها ... وتركه حظ لها وقسيم

(وقال أيضاً)

أيهجر ليلى قد بدت فى المنى ... وردت على ماثم يكن بالفجر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا ساوة الأيام موعدك الحشر
تكاد يدى تندى إذا ما لمستها ... وينبت فى أطرافها الورق الخضر
وجدت لها ديباجة قرشية ... بها تكشف البلوى ويستنزل القطر
ويهتز تحت الثوب قوامها ... كما اهتز غصن البان والفنن النضر
يا حذا الأحبة مادمت فيهم ... ويا حبذا الأوطان إن ضمك القبر
وإن لتعرونى لذكراك نفضة ... كما انتفض العصفور بلله القطر
تمنى أن حبيبها عند قبره ... زيارة ليلى أن يكون لها أجر

فما هو إلا أن أراها فجـــأة فأبهت لا عرف الدى ولا نكر
فلو أن مابى بالحصى فلق الحصى بالصخرة الصماء لانصدع الصخر
ولو أن مابى بالوحوش لمارعت ولاساغها الماء النمير ولا الزهر
ولو أن مابى بالبحار لما جرت بأمواجها بحر إذا زخر البحر

(قال الراوى) فبكى أبوه شفقة عليه وهطلت دموعه على وجنتيه، ثم اعتنقه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى إلى متى وأنت فى هذا الشقاء العظيم والبلاء الجسيم، أما كفاك الجولان فى القفار وعدم الهجوع والقرار وسهر الليـل والنهار، حتى عدمت النشاط وصرت كل يوم فى ضعف وانحطاط، فإن بقيت على مثل هذه الحال لاتزال فى انهزال وانحلال لأنه ليس فى ذلك إلا إضاعة العمر والمصير إلى المهالك، فعدمعى الآن إلى بنى عامر وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة قال:

ومازال أبوه يشاغله بالأحاديث اللطيفة والعبارات الظريفة إلى أن راق ولان ورجع معه إلى الأوطان وزالت عنه الغموم والأحزان وفرح به الأهل والخلان وصار عند أبيه فى أعلى درجة وأرفع مكان، فهذا ماكان منه وماجرى له من مكابدة العشق وحر الصبابة والوله. وأما من كان من ليلى فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق وتحدثت فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق، وتناشدوا ماقال فيها قيس من الأشعار الرقاق، التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق، فكان كل واحد يود أن ينظر ويتمنى أن يراها ويبصرها فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب، وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له سعد بن المنيف وكان أعظم من طلبها قدراً وأفخمهم ذكراً فاستشار الأب ابنته ليلى وأظهر له رغبته فى ذلك المولى وقال لها قد انتشر صيتك فى بلاد العرب

وخطبك من السادات أصحاب المناصب والرتب ، وأنا أصد كل طالب ولا أصغى لخطبة خاطب خوفاً من زوج ذميم الأخلاق قبيح السيرة كل المذاق لا تقدرين على معاشرته وتتعبين فى مرافقته ، إلى أن خطبك هذا الإنسان وهو من أكابر هذا الزمان وعمدة الزوات والأعيان كثير المال محمود الخصال قد تحلى بالأدب والجمال واتصف بالهمة العلية والكمال وقد أجبته إلى هذا السؤال وأزوجك إياه دون بقية الرجال لأنه لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويفرج همها ، فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر واكتوى قلبها بلهيب الجمر لأن هذا الخبر لا يوافق غرضها ولا يشفى غلتها ومرضها لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة والصداقة القويمة فأنت ولم تتمهل وفضلت حلول الأجل وقالت هذا أمر لا يتم أبداً ولو مت قهراً وكمداً ، فلما سمع كلامها وعلم ما فى ضميرها ومرامها تهددها ودار به الغيظ ، فلطمها فاجتمع عليه الجيران والأهل والخلان فلما رأت ما حل بها من الهوان وإن موج البلايا أحاط بها من كل مكان أجابت سؤله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفاً ورؤيتها إياه تعسفاً فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار . قال ولما بلغ قيساً هذا الخبر اضطرب وتحرق قلبه والتهب واستولى عليه الجنون بعد الهدوء والسكون وأنشد يقول :

وقد خبروني أن ليلى تزوجت ... ولا بد لى من أن ألاقى حليلها
فإن كان مثلى لم ألمها على الهوى ... وإن كان دونى بئس ما قد قضى لها
وإن كان من أوباش ما حوت القرى ... لقد تعست ليلى وأضنت خليلها

(وقال أيضاً)

حبيب نأى عنى الزمان بقربه فصيرنى فرداً بغير حبيب
فلى قلب محزون ونفس مدله ووحشة مهجور وذل غريب
فياحقب الأيام هل فيك مطمع لرد حبيب أو لدفع كروب

ثم خنقته العبرة وزادت عليه الحال ، فخرج يهيم فى الصحارى والتلال ويطوف فى قلل الجبال ويتحمل المشقات والأثقال ، ويقتحم الموارد حتى ضعف جسمه من شدة الانتحال . وجف جلده على عظمه لقوة الهزال فشق على الأهل والجيران والأصدقاء والخلان وقالوا لأبيه وكنت تحمله وتمرضه على طبيب لربما انتفع بعلاجه وتعود صحته إليه عن قريب ، فامتثل وخرج إلى الصحراء فى طلبه حتى اجتمع به ، فلاطفه بالكلام ولاقاه بالبشاشة والإكرام ثم إنه سار به إلى طبيب فى تلك الأطراف يقال له علقمة بن عساف وهو فى بلاد العرب مشهور يعالج كل مجنون ومسحور ، فلما دخل عليه حدثه بقصة ولده على التمام وما هو فيه من العشق والغرام وكيف أنه قد حمل نفسه مالا يراه إلى أن أنهكه سقام وأصابه محن عبرة لمن يراه بعد ما كان فريد زمانه ووحيد دهره وأوانه وفاق بالفصاحة والآداب سائر أقرانه ، فعند ذلك أخذ الطبيب يسقيه شربة بعد شربة ويكرهه فى ذلك ، فلما أكثر عليه المقال أنشد وقال :

ألا ياطبيب الجن ويحك داوني فإن طبيب الإنس أعياه دائيا
ذهبت لطبيب الإنس شيخاً مداوياً بمكة يعطى فى الدواء الأمانيا
فقلت له ياعم حكمك محتكم إذا ما كسبت اليوم ياعم مابيا
فقال فمر بالرحيل فإنه سيرحل فيه سهلة وسنانيب
فقلت وسرحنى فإنى أريده أعوذ برب الناس منك معاذيا
فقال فداء الطب أن تعشق الهوى واحتفاء من تهوى إذا كنت خاليا

قال الطبيب نعم ليس للعاشق الكئيب دواء إلا منادمة الحبيب ، فإذا حصل على ذلك الغرض زال عنه ذلك المرض هذا وقيس يعض على لسانه وشفتيه حتى كاد من فرط الحزن يقطعهما ؛ ثم نهض وخرج على وجهه هائماً فى الفلوات ، فبينما هو يدور رأى ناراً فى بعض الجهات فدنا ، وإذا حولها قوم رعاة فأنشد وقال :

رعاة الليل ما فعل الصباح ... وما فعلت أوائله الملاح
وما بال النجوم معلقات ... بقلب الصب ليس لها براح
كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
رعاة الليل كونوا كيف شئتم ... فقد أودى بى الحب المتاح

(وقال أيضاً)

ذكرت عشية الصدفين ليلى ... وكل الدهر ذاكرها جديد
إذا حال الغراب الجون دونى ... فمقلبى إلى ليلى بعيد
على ألية إن كنت أدرى ... أينقص حب ليلى أو يزيد
لها فى طرفها لحظات حتف ... تميت بها وتحيى من تريد
وإن غضبت رأيت الناس هلكى ... وإن رضيت فأرواح تعود

(وقال أيضاً)

أقول لأصحابى وقد طلبوا الصلا ... تعالوا اصطلوا إن خفتم القر من صدرى
فإن لهيب النار بين جوانحى ... إذا ذكرت ليلى أحر من الجمر
فقالوا نريد الماء نسقى ونستقى ... فقلت تعالوا فاستقوا الماء من نهرى
فقالوا وأين النهر قلت مدامعى ... سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر
فقالوا ولم هذا فقلت من الهوى ... فقالوا لحاك الله قلت اسمعوا عذرى
ألم تعرفوا وجهاً لليلى شعاعه ... إذا برزت يغنى عن الشمس والبدر

To: www.al-mostafa.com

ـــــر بوهمي خاطر فيؤودها ويحرحها دون العيـان لها فكرى
معمـلة لو قابل البـدر وجهها لكان له فضل مبين على البدر
هلالية الأعـلى ماطحـة الذرى مرجرحة السفـلى مرفهفـة الخصر
مسنة هيمـــاء مهضومة الحشـا موردة الخـدين واضحـة الثغر

مدملجة الساعدين بضة بضيضة مفلجة الأنياب مصقولة الثغر
فقالوا أتجزون فقلت موسوس أطوف بطهر البيد قفراً إلى قفر
فلا ملك الموت المريح يريحني ولا أنا ذو عيش ولا أنا ذو صبر
وصحت بوشك البين منها حمامه بغت بليل في ذرى ناعم صعر
على دوحة سقت تحت أصولها نواقع ماء مده رضف الصخر
مطوقة طوقاً ترى في خطاطها أصول سواد مطمئن على البحر
أرنت أعلى الصوت منها فريعت فؤاداً معنى بالمنيحة لو تدري
فقلت لها عودي فلما ترنمت تبادرت العينان سحاً على الصدر
كأن فؤادي حين حد مسيرها جناح غراب راعه نضح الوكر
فودعتها ولما تقشع في الحشا وتودلعم عادي أمر من الصبر
وحنت كأني يوم راحت بغضا بقيت دم الحبات حين انهمى عمري
أبت صريع الحب دام من الورى وأصبح مرتوع الفؤاد من الصبر
رمتني يد الأيام عن قوس غره سهيم في عسيرتني وفي يسري
سهمين مسمومين من رأس شاهق تعذرت محمي الترائب والنحر
سري دعيني في الهوى وتحملاً فمت لا بل لم يزر قبري
وما كنت باركت من ماء مزنة ولو كنت يوماً كنت من غصة الصخر
ولو كنت ليلاً كنت ليل توصل ولو كنت نجماً كنت بدر الدجى يسري
عليك سلام الله يا غاية المنى وقاتلتي حتى القيامة والحشر

وقال أيضاً:

لعمرت لي بأن لا أحبها على وإن العشر والتسعة الوفر
وإن الذي لا يعلم العيب غيره بصيرته تجري السفين على البحر
على ولدي دي من الطير وحده وعظم أيام الدبيحة والبحر
لقد نطقت ليلى على الناس مثلما على ثاب سهر فضلت ليلة القدر

تذكرت عن ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
إذا ذكرت ليلى أسر بذكرها ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
مفاجأة الأنياب لو أن ريقها ... يداوى به الموتى لقاموا من القبر
هى البدر حسناً والنساء كواكب ... فشتان ما بين الكواكب والبدر
يقولون مجنون يهيم بذكرها ... ووالله ما بى من جنون ولا سحر
إذا ما قرضت الشعر فى غير ذكرها ... أبى وأبيكم أن يطاوعنى شعرى
فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها ... ودامت لنا الدنيا إلى ملتقى الحشر
عليها سلام الله من ذى صبابة ... وصب معنى بالهوى والفكر
ليالى أعطيت البطالة مقودى ... تمر الليالى والسنون ولا أدرى
مضى لى زمان لو أخير بينه ... وبين حياتى خالداً أبد الدهر
لقلت ذروني ساعة وكلامها ... على غفلة الواشين ثم انطوى عمرى

وقال أيضاً

أنيرى مكان البدر إن أفل البدر ... وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر
فثغرك من شمس المنيرة ضوءها ... وليس لها منك التبسم والثغر
بلى لك نور الشمس والبدر كله ... ولا حملت عينيك شمس ولا بدر
لك الشرفة اللألاء والبدر طالع ... وليس لها منك الترائب والنحر
فمن أين للشمس المنيرة باضحا ... بمكحولة العينين فى طرفها فتر

(قال الراوى) وأقام قيس مع الرعيان نحو ساعة من الزمان وهو ينشد [illegible] ثم ترك المكان وقصد بعض الهضاب وصار [illegible] وهو فى مثل ذلك الوقت إذ مر به [illegible] وفى صحبته جماعة من الخدم والغلمان يقال إنه [illegible] فلما رآه على تلك الحال أخذته الرحمة [illegible] فقال له بعض الرجال: هذا مجنون بنى عامر

الذى فاق بالفصاحة والنظام على كل أديب وشاعر ، وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام يقال لها ليلى بنت المهدى بن عصام وتعلق قلبه بحبها وهام ، وهجر الأهل والأحباب وقصد البرارى والهضاب ، واختار القفار وطنا واتخذها لنفسه سكنا ، فقال نوفل : قد كنت أحب أن أنظر هذا الرجل وألقاه وأحظى برؤياه لأنى سمعت كثيراً عنه فكيف لى بالدنو منه قال أذكر له ليلى فإذا ذكرتها أفاق وصفا خاطره وراق ، وأنشدك من أشعاره البديعة ما لم يسبقه إليه أحد من شعراء مصر وربيعة . فعند ذلك تقدم نوفل إليه وسلم عليه ، وقال له بحياة ليلى التى هى عندك أعظم من كل شىء شنف بنفائس أشعارك أذنى لأنه قد بلغنى أنك أفصح الناس كلاما وأجودهم شعراً ونظاما ، فبكى قيس وتململ لما سمع كلام نوفل ، وأنشد من فؤاد متبول القصيدة التى قالها فى التدبن :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا ... وأياما لا نخشى على اللهو ناهيا
ويوم كظل الرمح قصرت طوله ... بليلى فلهانى وما كنت لاهيا
بتمدين لاحت نار ليلى وصحبتى ... بذات الغضى تزجى المطى النواجيا
فقال بصير القوم لحت كوكباً ... تلألأ فى سواد الليل فرداً يمانيا
فقلت له بل نار ليلى توقدت ... علينا تسامى ضوؤها فبدانيا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فيالیل كم من حاجة لى مهمة ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ماهيا
خليلى أن لا تبكيانى ألتمس ... خليلا إذا أنزفت دمعى بكى ليا
فما أشرب الأنقاع إلا صبابة ... ولا أنشد الأشعار إلا تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
لحا الله أقواما يقولون إننا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدى بليلى وهى ذات مؤصد ... ترد علينا بالعشى المواشيا

فشب بنو ليلى وشب بنوابنها ... وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه ... تواشوا بنا حتى أمل مكانيا
سقى الله جارات لليلى تباعدت ... بهن النوى حيث احتللن المطاليا
ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنى ... ولا توبة حتى احتضنت السواريا
ولا نسوة صبغن كيداء جلعد ... لتشبه ليلى ثم عرضنها ليا
خليلى لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قاضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بتى غير ليلى ابتلانيا
وخبرتمانى أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا
فلو أن واش باليمامة داره ... ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا
فماذا لهم لا أحسن الله حالهم ... من الحظ فى تصريم ليلى حبالیا
وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل ... بى النقض والإبرام حتى علانيا
فيارب سو الحب بينى وبينها ... يكون كفافاً لا على ولا ليا
فما طلع النجم الذى يهتدى به ... ولا الصبح إلا هيجا ذكرها لیا
ولاسرت ميلا من دمشق ولا بدا ... سهيل لأهل الشام إلا بدا ليا
ولا سميت عندى لها من سمية ... من الناس إلا بل دمعى ردائيا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضها ... من الليل إلا هبت الريح جانيا
يبن تمسوا ليلى وتحموا بلادها ... على ملن تحموا على القرائيا
فأشهد عند الله أنى أحبها ... فهذا لها عندى فما عندها ليا
يصل الله بالمعروف منها الخيرا ... وبالشوق منى والغرام قضى ليا
أشاب فؤادى أم مالك ... أشاب فؤادى (١) واستهان فؤاديا
وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا ... وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا

(١) فؤاد نرئس : جنباه .

وأخرج من بين البيوت لعلنى ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا
أرانى إذا صليت يممت نحوها ... بوجهى وإن كان المصلى ورائيا
وما بى إشراك ولكن حبها ... وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا
خليلى ليلى أكبر الحاج والمنى ... فمن لى بليلى أو فمن ذا لها بيا
لعمرى لقد أبكيتنى يا حمامة العقيق ... وأبكيت العيون البواكيا
خليلى ما أرجو من العيش بعدما ... أرى حاجتى تنترى ولا تنترى بيا
وتجرم ليلى ثم تزعم أننى ... سلوت ولا يخفى على الناس ما بيا
فلم أر ملينا خليلى صبابة ... أشد على رغم الأعادى تصافيا
خليلان لا نرجو اللقاء ولا نرى ... خليلين لا يرجون إلا تلاقيا
وإنى لأستحييك أن تعرض المنى ... بوصلك أو أن تعرضى فى المنى بيا
يقول أناس عل مجنون عامر ... يرره سلواً قلت إنى لما بيا
بى اليأس أو دار الهيام أصابنى ... فإياك عنى لا يكن بك ما بيا
إذا ما استطال الدهر يا أم مالك ... فشأن المنايا القاضيات وسانيا
إذا اكتحلت عين بسينك لم تزل ... بخير رحلت غمرة من قراتيا
فأنت التى إن شئت أشقيت عيشتى ... وأنت التى إن شئت أنعمت بالبيا
وأنت التى ما من صديق ولا عدا ... يرى نصو ما أبقيت إلا رثى ليا
أمصروبة بيلى على أن أزورها ... ومتخذ دونا لها أن ترانيا
إذا سرت فى الأرض الفضاء رأيتنى ... أصانع رحلى أن يميل حياليا
يميناً إذا كنت يميناً وإن تكن ... شمالاً يزعنى الهوى عن شمالیا
وإنى لأستغنى وما بى نعمة ... عن حيلا منك يبقى حياليا
وما السحر إلا أن للسحر رقية ... وإنى لا أرقى من الدهر راقيا
إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا ... كفى بمطايانا بذكراك هاديا

ذكرت نار شوق فى فؤادى فأصبحت ... لها وهج مستضرم فى فؤاديا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أشائلكم هل سال نعمان بعدنا ... وحب إليها بطن نعمان واديا
ألا ياحمى بطن نعمان هجتما ... على الهوى لما تغيتما ليا
وأبكيتانى و سط صحبى و أكثر ... بالدموع الهتن لو كنت خاليا
ويا أيها قمريتان تحاوبا ... باحسيكما ثم سجعا علانيا
فإن أنتما ستطربتما ثم أردتما ... لحاق بأطلال الغضى فاسقنيا
ألا ليت شعرى هل إلى ومصابا ... وهل نصبا من بعد شيب علانيا
ألا أيها الواشى بسلمى ألا ترى ... إلى الله تشبها وتلمح أنت اشيا
لئن طال هذا الهجر يا أم مالك ... فما ظمن الحب الذى فى فؤاديا
فيارب لا صبرت ليلى من الأسى ... ولا نفسها بعدى ولا عيشها الدواهيا
وإلا فنغصها بعدى وأعقبت ... الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ... وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا
خليلى إن خفتما بلى قصر ... فى الحبس و الكتمان و ستغفرا ليا

(قال الراوى) فلما انتهى قيس من سمره أخذ نوفل طرباً وتمايل عجباً وقال لله درك على هذه الألفاظ الرشيقة والمعانى البديعة الرقيقة، فانها تشرح الخواطر والقلوب وتجلى الهموم والكروب وتسلى المحب على فراق المحبوب، لأنك ما تركت من طرائف الغزل والنسيب وأنواع البديع فى وصف الحبيب مقالا لشاعر لبيب قول الحب صيرك إلى ما أرى، فقال له قيس وقد ساءه ذلك أكثر مما ترى وأنشد يقول:

أياحاجات الحى حين تحملوا ... بذى سلم لاجاد كن ربيع
وخيماتك الآلاق بالعرج اللوى ... بلين بلى ما إن لهن رجوع
إلى الله أشكونية شقت لعصا ... هى اليوم شتى وهى أمس جميع

فلو لم يهجنى الطاعنون لهاجنى نوائح ورق فى الديار تقوع
فداعين فاستبكين من كان ذاهوى نوائح لاتجرى لهن دموع
لعمرى إنى يوم جرعاء مالك لعاص لأمر العاذلين مطيع
وماكاد قلبى بعد أيام جاوزت إلى بأجواز الندى يريع
وإن انهمال الدمع بالليل كلما ذكرتك يوماً خالياً لسريع
ندمت على ما كان منى نداماتى كما ندم المغبون حين يبيع
لعمرك ماشىء سمعت بذكره كبيك يأتى نغتة فيروع
عدمتك من نفس شعاع فانى نهتك عن هـــذا وأنت جميع
فقربت لى غير القريب وأشرفت هناك ثنايا ما لهن طلوع
يضعضعنى حنينك حتى كأنى من الأهل والمال التليد نزيع
وحتى دعانى الناس أحمق مائقاً وقالوا تبوع للضلال مطيع

(قال الراوى) ثم تزايدت حسراته وتصاعدت زفراته، ونهد وبكى وتأوه وتنهد وقال جعلنا الأصحاب وتخلى عنا الاهل والأحباب لبلاه من أمر عظيم وخطب جسيم، فقال له بوقل اعلم أيها الأخ المفضل إن دمت على هذه الحال فإنك هالك لا محالة فتب إلى الله وارجع إليه واعتمد فى أمورك عليه، يكشف عنك هذا العرض ويزيل من قلبك هذا المرض، فأجابه قيس قائلا ياأخى كيف أضيق صبرا وقد استعل قلبى من لهوى بجمر، فسألته عليك ذهب عنى ودعنى أقاسى العذاب وأتجرع موارد الهلاك والعطب، لأنك كلما عزيتنى ونهيتنى ونصحتنى ازدادت فيها محبتى وقويت إليها رغبتى ثم غلب عليه الهوى وأنشد وقال

أبيك عنى فانى ثم صب لا يرى الجسم قد بدى به عطب
لا تلمنى ماذا قد أبيح له من جميل الصبر والرجاع والهرب
صبرت عنى بلاء الله صار حبيت بين سهل الأرض والجبل الصعب

البين يؤلمني والشوق يجرحني والدار نازحة والشمل منشعب
كيف السبيل إلى ليلى وقد حجبت عهدي بها زمناً مادونها حجب

(وقال أيضاً)

لو سيل أهل الهوى من بعد موتهم هل فرجت عنكم مذ متم الكرب
لقال صادقهم أن قد بلى جسدي لكن نار الهوى في القلب تلتهب
جفت مدامع عين الجسم حين بكى وإن سباسمع عين الروح تنسكب

(وقال أيضاً)

وقالوا لو تشاء سلوت عنها فقلت لهم فإني لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي كما علقت بأرشية دلاء
لها حب تشأ في فؤادي فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعني ملاماً وفي زجر العواذل لي بلاء

(وقال أيضاً)

إن الغواني قتلت عشاقها ياليت من جهل الصبابة ذاقها
في صدغهن عقارب يالسعنا ما من لسعن بواجد ترياقها
إن الشقاء عناق كل خريدة كالخيرزانة لا تمل عناقها
بيض تشبه بالحقاق ثديها من عاجه حكت الثدي حقاقها
يدمى الحرير جلودهن وإنما يكسين من حلل الحرير رقاقها
زانت روادفها دقاق خصورها إني أحب من الخصور دقاقها
إني طرق الرجال خياطها ماكنت زائره ولا طراقها

(ذكر رأيه) كتب نزيل من سرعة بديهته وعذوبة ألفاظه وقوة مخيلته وكان قد أهدى إليه أخوه الشقة هديه، فقال له أيها الحبيب والشاعر اللبيب مهما يكن من عي وبطء لدي أن أراك في هذه الحال تقاسي العذاب والنكال فإن ما كان من تعبير مني إلى الدنيا وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من

هى احسن واحلى من ابنة عمك ليلى ، فلما سمع كلامه جمدت عيناه وعظمت بلاياه ، وقال لاسمعن قولك أبداً ولا تركت ليلى على طول المدى ، فعند ذلك تركه ومضى يهيم قيس فى السهول والأوعار ، ينشد الأشعار ويتقوت بنبات القفار يقاسى المشقات والأخطار .

(قال الراوى) وكانت ليلى منذ تزوجت لاتنشف لها دمعة ولا تبرد لها لوعة وذلك لخوفها على قيس ووجدها به لأنها كانت مشغوفة بحبه وكان لايقر لها قرار ولايطاوعها اصطبار بل كانت تبكى فى الليل والنهار بدموع غزار إلى أن فار دم قلبها من فرط عشقها وحبها ، ولما طال عليها الحال أنشدت تقول من فؤاد متبول :

إذا هدأت رجلى بدأت بذكره ... وأحلم فى نومى به وأعيش
إذا ذكر المجنون زالت بذكره ... قوى النفس أوكاد الفؤاد يطيش
ووالله ما زال الفؤاد يحنه ... وإن كان صدرى من سواه يعيش

قال لبيد بن عنبسة حدثنى بعض الرواة أنه قيل لليلى العامرية زالت بن لم تنته عن ذكره لنقتلنكما معا ، فبعثت إلى القائل على يد مولاة لها رقعة مكتوباً فيها .

توعدنى قومى بقتلى وقتله ... فقلت اقتلونى واتركوه من الذنب
ولا تبعثوه بعد قتلى ذلة ... كفى بالذى يلقاه من سورة الحب

(قال الراوى) ثم استدعت بغلام من أهل الحى الذى كانت تعتمد عليه فى كل شىء وكلفته إلى قيس مع ذلك الغلام تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

أعلم يا ابن العم وفقك الله من عافيته لغير ما أعهد أنى قد أوحشتك من مدة آتى إليك ، وقد كنت عزمت أن زرتنا مواظبة على الإحسان لا أرى طريقاً لغير ولا نزار لمستصغر ، إلى أن ضاق صدرى وقل صبرى وتراكمت على

الأسقام من كثرة البكاء وقلة الأكل والطعام ، ولا شك بأن حياتى فى هذه الدنيا صارت قصيرة وأيام إقامتى يسيرة حيث لم يعد لى صبر على الفراق وقد اكتوى قلبى بنيران الاشتياق ، وما بقى فى الأمر إلا التسليم والانقياد على ما قدره علينا رب العباد ، وختمت كلامها بهذه الأبيات :

قد كنت حاذرة للدهر عارفة ... أن سوف يطلبنى بالرمى مفتقدا
حتى رماك بمن قد جل عن صفتى ... فما أرى لى به ويلى الغداة يدا
لقت الدواة بماء العين ثم به ... كتبت ما يكتب المجهود إذ جهدا
هذا الوداع لمن روعى الفداء له ... قد خفت ألا أراه بعده أبدا

ثم إنها أمرت ذلك الشاب أن يسير فى طلبه فى البرارى والهضاب وانها بوانتظار الجواب فامتثل وسار وقصد الروابى والقفار ولازال يطلبه فى جوانب البر حتى التقى به فى يوم شديد الحر قد التجأ إلى كهف جبل عظيم بالقرب من ديار بنى تميم وهو مستلق على ظهره وغارق فى بحار فكره ينشد ويقول :

أحن إلى ليلى وإن شطت النوى ... بنى كما حن النياع المثقب
يقولون ليلى عذبتك بحبها ... ألا حبذا ذاك الحبيب المعذب

(قال الراوى) فدنا منه الغلام وحياه بالسلام ولاطفه بالكلام ، وقال له أيها الشاب الظريف والأديب اللطيف ، إن محبوبتك ليلى تسلم عليك وقد أرسلتنى بكتاب إليك ، فيه ما يسر الخاطر ويشرح القلوب والنواظر ، فلما ذكرت له ليلى رجع عقله إليه واستوى جالساً على قدميه ، وتناول الكتاب وقرأه ووقف على فحواه وطرب وتنهد وكفكف دموعه وأنشد :

إذا جئنى منها الكتاب بعينه ... خلوت بنفسى حيث كنت من الأرض
أبكى لنفسى رحمة من جفائها ... وأبكى من الهجران بعضى على بعضى
وأشكر دهرا مسيئاً رحمنى ... وأقضى على نفسى لها بالذى تقضى
فحتى تروح أرضا لا تنالنى ... وحتى تأبى أيام سخطك لا تمضى

ثم أجابها على كتابها يقول : من قيس بن الملوح الهائم الوامق والحبيب الصادق ، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح ، درة الصدف وياقوتة الشرف ، من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية إنني بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واستكشاف آثارك ، ولفظك وحالك ومشاهدة أنوار جمالك ، إذ ورد إلى عزيز رسالتك الموسومة بسمات المحبة المسفرة عن ازدياد الصحبة والصداقة ، فتلقاها القلب بالفرح وزال عنه الغم وانشرح غير أنه لايخفاك ما أنا فيه من الكدر والقلق والضجر وكثرة البكاء والسهر ، وكيف إني تركت الوطن المألوف وانفردت في الروابي والكهوف ، أهيم مع الوحوش والغزلان وأنتقل من مكان إلى مكان ، وحيداً غريبا ذليلا مهانا أقاسي شراً وأحزاناً لا يستقيم لي حال ولا يرتاح لي بال ، حتى صرت نحيلا كالخيال وذلك من كثرة الأشواق وتباريح الهوى ومرارة الفراق ، فقاتل الله أباك الغدار وبلاه بالويل والدمار لأنه كان سبب بليتي وطردي عن أهلي وعشيرتي وما كفاه ذلك حتى أنه زوجك برجل غريب واختار البعيد على القريب وهذا شرح مابي من الشقاء والتعذيب . وإني لك على طول الزمان حبيب .

(قال الراوي) ثم تصاعدت من أنفاسه الزفرات فختم كلامه بهذه الأبيات

أيامهد لي نعي الحبيب صبيحة ... بمن وإلى من جئتما تنعيان
بمن لو رآه عانياً لفديته ... ومن لو رآني عانياً لفداني
فمن مبلغ عني الحبيب رسالة ... بأن فؤادي دائم الخفقان
وإني ممنوع من النوم مدنف ... وعيناي من وجد الأسى يكفان

(وضمنه أيضاً)

وجدت الحب نيراناً تلظى ... قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت إذا احترقت تهانت ... ولكن كلما احترقت تعود
كأهل النار إذا نضجت جلود ... أعيدت للشقاء لهم جلود

(وضمنه أيضاً)

أما والذى أعطاك بطشاً وقوة ... وصبراً وأزرى بى ونقص من بطشى
لقد محض الله الهوى لك خالصاً ... وركبه فى القلب منى بلاغش
تبرأت من كل الجسوم وحل بى ... فإن مت يوما فاطلبوه على نعشى
سلى الليل عنى هل أذوق رقاده ... وهل لضلوعى مستقر على فرشى

(وقال أيضاً)

فؤادى بين أضلاعى غريب ... ينادى من يحب فلا يجيب
أحاط به البلاء فكل يوم ... تقارعه الصبابة والنحيب
لقد جلب البلاء على قلبى ... فقلبى مذ علمت له جلوب
فإن تكن القلوب كمثل قلبى ... فلا كانت إذاً تلك القلوب

(قال الراوى) ثم إن ذلك الشاب رجع إلى ليلى بالجواب ، وأخبرها عن قيس وأحواله وما يقاسى من وجده وبلباله ، فتشوش خاطرها وتكدرت ضمائرها وتضاعف همها وغمها ، وتحسرت على قيس ابن عمها ، فكانت تبكى عليه فى الليل والنهار وتنشد رقيق الأشعار ، ودامت على ذلك مدة مديدة وأياماً عديدة . قال واتفق فى وقت من الأوقات أن جاريتها رأت فى بعض الطرقات صياداً معه خمسة غربان ، فاشترتهم وأتت بهم إلى سيدتها فخرجت بهم ليلى إلى خارج البيوت وجعلت تضرب غراباً غراباً حتى يموت فتعجب زوجها وانذهل . وقال لها ما الذى أحوجك إلى هذا العمل ؟ فقالت أن نعيق الغراب يدل على فراق الأحباب وتمزيق شمل الأصحاب ، وأن ابن عمى قيساً ذكرهم فى شعره جملة مرات ، وأمرهم أن يقفوا على عرصات القفار وقد قال :

من أجل غربان تصايح عدوة ... بينونة الأحباب دمعك سافح
نعم جادت العينان من غير رحمة ... كما سل من نظم اللآلى تطارح
ألا يا غراب البين لا صحت بعدد ... وأمكن من أوداج حلقك ذابح

يروع قلوب العاشقين ذوى الهوى إذا أمنوا الشنحاج أنك صائح
وعد سواء الحب واتركه خالياً وكن رجلا واجمح كما هو جامح

فآليت أن لا أقع بغراب بعد هذا المقال إلا قتلته فى الحال ، واعلم يا هذا حفضك الله وهداك أن تزوجى إياك لم يكن رغبة فى جمالك ولا فى رفعة مقامك وكثرة مالك ، وقد كنت حلفت أن لا أتزوج بعد قيس أبداً ولو مت شوقاً وكمدا لأنه صاحبي ومعتمدى وقرة عينى ومهجة كبدى ، وحبه لا ينتزع من قلبي وجسدى ، وليس فى ذلك من عار ولا عيب ولا شنار ، لأن محبتى له لم تكن صادرة إلا عن نبة صالحة وطوية طيبة ذكية الرائحة ، ولكن كتب عبد الملك بن مروان يأمر أبى بتزويجى .

فكان الأمر ولكنى سأصبر على ما رقمه القلم وأثبته الله حيث حكم . فلما سمع زوجها ذلك الخطاب اشتبه من كلامها ووقع فى اضطراب وأخذته الغيرة وداخله الشك والارتياب ، وتغيرت نيته وتقدم ضميره بالسوء إليها ، ثم انه ذهب إلى أبيها فى الحال وقص عليه ما سمعه منها من المقال : فخجل ذلك الخبيث عند سماعه هذا الحديث ، واضطرب جسمه وارتجف . وقال له لا تخف ، ثم أخذ يلاطفه بالحديث والكلام وأخبره بخبر قيس على التمام وكيف أنه حجبها عنه من سنين وأعوام وأخرج له كتاب عبد الملك بن مروان ، وقال له إن الخليفة يهدر دمه إن عاد واجتمع بها فى مكان وما زال يحدثه بمثل هذا الكلام حتى زالت عنه الشكوك والأوهام : واشتاق إلى رؤية قيس ومنادمته ومال إلى معرفته ، وما زال يترقب الفرص إلى أن خرج ذات يوم إلى الصيد والقنص فالتقى به وهو فى روضة خضراء بالقرب من الصحراء ويقربه قطيع من الغزلان والوعول وهو ينظر إلى ظبية تضع خشفها وهو ينشد ويقول :

لقد شرقتنى أم خشف وأنها إذا صرع القوم السكرى لطروق

أقام فريق من أناس بودهم بذات الشرى عندى وبات فريق
بحاجة مخزون كئيب فؤاده رهين ببيضات الحجال صديق

فتقدم زوج ليلى إليه وسلم عليه وأنشد يقول :

ومن عجب جنونك فى فتاة مزوجة ســـواك وان تراها
أيا مجنون كم نهذى بليـــلى كأن الله لم يخلق سواها (١)

(قال الراوى) فصاح قيس من شدة الوجد والوسواس ، وسأل عنه بعض الناس ، فقيل له هو بعل ليلى التى تحبها وترغب قربها ، فخر مغشياً عليه ثم أفاق فأنشد يقول :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيـــل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة فى نداها (٢)

فضحك زوج ليلى وتبسم ، وقال نعم إذ حلفت فنعم ، فلما سمع قيس منه ذلك المقال اضطرب فؤاده وقبض بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفتيه فقطعها فقام زوج ليلى مغموما متعجباً منه .

(قال راوى) وقد تكدر زوج ليلى وتشوش خاطره وتفكر ، وقال له احذر يا قيس من غفلات الزمان وسطوات الأعوان فإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد يهدر دمك مرة ثانية إن كنت لا تنتهى عن ذكر هذه الجارية لأنك فضحتها فى الأشعار ، وهتكتها فى سائر الأقطار ، وقد أعلمتك بحقيقة الخبر فكن من ذلك على حذر . فزاد بقيس القلق والضجر وفاض دمعه على خديه وانحدر ، وقال له والله إنه منذ ثلاثة أيام بينما كنت أطوف فى بعض الآكام رأيت طيرين وقالا لى وحق الملك الديان لقد

---

(١) هكذا فى الأصل ولم نجدها فى الديوان
(٢) ذكرها أبو فرج فى أغانيه ص ٣٤ ج ٢

لقد قضى الرحمن بانقضاء أيام عبد الملك بن مروان ثم أطرق مليا وأقام مدة لا يتكلم شيئا ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر ، وقال أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات ، أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات ، فاندهش زوج ليلى من كلامه وارتد راجعاً الى خيامه ، وما مضى أكثر من ثلاثة أيام بعد ذلك الكلام ، حتى شاع الخبر بموت عبد الملك فى قبائل العربان فتعجب زوج ليلى من ذلك الاتفاق الغريب والأمر العجيب .

(قال الراوى) وكان أبو قيس لا يطيب له عيش ولا يرتاح له بال خوفاً على ولده من الهلاك والوبال ، لأنه كان عالماً بالحال الذى هو فيه والشقاء الذى كان يؤلمه ويؤذيه . فخرج فى طلبه ذات يوم مع جماعة من القوم ولما زالوا يتطلبون سؤاله والكلام معه ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع التقوا به وهو على الرمال جالساً وقد أطرق برأسه إلى الأرض عابساً ، فبكى أبوه وتراءى عليه وقبله بين عينيه وقال له ياولدى وبهجة كبدى إلى متى وأنت فى هذه الحال تقاسى الهموم والأحوال والمشقات والإذلال ، بعد ذلك الجاه والدلال ، فأين عقلك رحمت والدتك وأبيك وأهلك وعشيرتك وأهاديك ، فقم بنا الآن نرجع الى الأوطان ، فإن الذى أنت فيه إنما هو من عمل الشيطان ، فأجابه عند ذلك بصوت حزين ، فقال إنى لك سامع ولأمرك طائع إلا فى هذا الشأن خارج عن حد الإمكان ، ثم نهضت عيناه بالدموع وأنشد من فؤاد مصدوع :

الله يعلم أنى النفس هالكة ... باليأس منك ولكنى أعنيها
منيتك النفس حتى قد أضر بها ... واستيقنت خلفاً مما أمنيها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت ... أشهى إلى من الدنيا وما فيها(١)

قال له أبوه اذكر الله فى نفسك فى حلول رمسك ، فقال قد صدقت وبالحق نطقت وأنشد يقول :

---

(١) ذكرها صاحب الاغانى ص ٨٣ ولم أجدها فى الديوان.

دعوت إلهى دعوة ما جهلتها ... وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كنت تهدى برد أنيابها العلا ... لأفقر منى . إننى لفقير
فقد شاعت الأخبار أن قد تزوجت ... فهل يأتينى بالطلاق بشير

﴿ وقال أيضاً ﴾

ألا تلك ليلى العامرية أصبحت ... تقطع إلا من ثقيف حبالها
هم حبسوها محبس الذل وابتغى ... بها المال أقوام ألا قل مالها
إذا التفت والعيس صعر من البرى ... بنخلة جلت عبرة العين حالها

﴿ وقال أيضاً ﴾

عفا الله عن ليلى وإن سفكت دمى ... فإنى وإن لم تجزنى غير عائب
عليها ولا مبد لليلى شكاية ... وقد يشتكى المشكى إلى كل صاحب
يقولون تسلى ذكر ليلى وحبها ... وما جلدى عن حب ليلى بتائب

(قال الراوى) ثم إنه تركهم وذهب ونبطن فى ذلك البر راكباً وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان وكان كثيراً ما يجتمع ليلى فى تلك المكان ، فلما رآه تذكر ايام الصبا وتجددت عليه الهموم والأحزان وأنشد وقال :

وأجهشت للثوبان حتى رأيته ... وهلل للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما رأيته ... وناديت بأعلى صوتى ودعانى
فقلت له أين الذين عهدتهم ... حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ... ومن ذا الذى يبقى مع الحدثان
وإن تبكى الوحش من حذرى غداً ... ورائك والحيان مؤتلفان
سجاداً وبهاماً وويلا وديمة ... وسحاً وتسجاماً إلى همدان

ثم إنه بكى من فؤاد مجروح . وإذا به يسمع صوت حمامة تندب إلفها وتنوح فأنشد:

لقد هتف فى جنح ليلى حمامة على فنن وهنا وإنى لنائم
فقلت اعتذارا عند ذاك وإننى لنفسى فيما قد أتيت لنادم
أأزعم أنى عاشق ذو صبابة بليلى ولا أبكى وتبكى البهائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

(وقال أيضاً)

أيا جبل الثلج الذى فى ظلاله غزالان مكحولان مؤتلفان
غزالان شطا فى نعيم وغبطة ورغدة عيش ناعم عطران
أرغتهما ختلا فلم أستطعهما ففرا وشيكا بعد ما قتلانى
خليلى أما أم عمرو فنهما وأما على الأخرى دلا تسلانى
فما صاديات حمن يوماً وليلة على الماء دون الورد هن حوان
يرين حمام الماء والموت دونه وهن لأصوات السقاة روانى
بأكثر منى حسرة وصبابة اليها ولكن الفراق عرانى
خليلى لى ميت و مكتئم لدينى بحاجى فاقضيا ودوانى
أقل حاجتى وحدى فيارب حاجة قضيت على هول وخوف مكانى
وأن أحق الناس منى تحية مشرقاً ها من أو يشا تتفانى
ومن قادنى الموت حتى إذا صفت مشاربه سم الأساود سقانى

ثم إنه ترك المكان وقصد الروابى والكثبان وهو يسد لأشعاره حسان رهيم مع الوحوش والغزلان .

واتفق أن رجلا من بنى أسد خرج ذات يوم من الدار طالباً الميرى والقفار وكان ذلك فى عام أنهب أمسكت السماء فيه مطرها والأرض نباتها . فرحل ناقته وركب الصعب والذلول ، تردد رمل وتخطف أخرى قال الرجل وما زلت أقطع السهول والأوعار ، حتى صرت فى بعض الليالى حيث رفعت لى روضة سحيقة كثيرة الأنوار زاهرة الجنبات والأزهار فدعتنى نفسى إلى الإلمام بها وودت أن أقيم فيها وأتنزه فى بعض نواحيها فنزلت فى

أرجاء تلك الأزاهير المونقة والأنوار البديعة المورقة ، وأنخت ناقتي إلى قنوان شجرة صغيرة وجلست تحتها ، فبينما أنا كذلك أتأمل في تلك الروضة والمروج الطويلة العريضة إذ سقط رجل من جراد كثير ، فأعداد على ذلك الوادي فافترشت جنباتها وأرضها وأخذت طولها وعرضها . فظللت متعجباً مما أرى .

ثم رميت نظري في نواحيها ، فإذا أنا بشخص أقبل من صدر البرية ناحل الجسم عار من اللحم ، وما على جسده غير شعر متسدل على صدره ، وزغبات على عكنه ، فراعني منظره واستطار قلبي خوفاً ووجلا وخشيت أن أكون على شرف الهلاك ، وما شككت أنه شيطان مرد فلما دنا مني أنشد يقول :

يحب البينا بك يا جرادُ أرضٌ وإن جاعت بك الأكبادُ
وصاقت الأصدار والأوراد لم يكن منك لنا فتادُ
ولا لابناء السبيل الزادُ

فقلت له إنسي أنت أم جني ؟ فأنشأ يقول :

إليك عني فإني هائم صب أما ترى الجسم فد أودى به العطب

وقال أيضاً :

في قلب مت حزناً ولا تك جازعا بأن جزوع القوم ليس بخالد
هويت فتاة كالغزالة وجهها وكالشمس يسبي دلها كل عابد
ولي كبد حرى وقلب معذب ودمع حثيث في الهوى غير جامد
وآية وجد الصب تهطال دمعه ودمع شجي الصب أعدل شاهد
على ما انطوى من وجده في ضميره على الآنسات الناعمات الخرائد
فيالبت أن الدهر جاد برجعة وهيهات أن الدهر ليس بعائد
اليك فعز النفس واستشعر الأسى فحبك يتمى زائداً غير بائد

وقد شمت ليلى وشط مزارها وغيرها عن عهدها قول حاسد
فيا أسفا حتام قلبي معذب إلى الله أشكو طول هذي الشدائد

قال الرجل ثم خر مغشياً عليه ، فبادرت إلى الماء ونضحت على وجهه فأفاق بعد حين ثم تنفس الصعداء فأنشأ يقول :

بلادي لو سمحت بسطت عذري إذا ما القلب عاوده نزوع بها الحين المباح لمن بغاه
وجرع للغريب به مريع إلى أهل الكرام تشاق نفسي فهل يوماً إلى وطني أريع

قال الرجل فتعجب من شدة عشقه وغرامه ورقة شعره وعذوبة كلامه فقلت له : ويحك يا أخا العرب وسيد أهل الفصاحة والأدب إني أراك في عذاب أليم وخطر عظيم وحال سقيم ، ولا شك أن هذا البلاء الذي أنت فيه والعناء الذي أنت تقاسيه ناتج من هواجس رديئة ووساوس شيطانية فبادر الآن واستعمل فكرك الرزين وتب إلى رب العالمين فهو يكشف عنك هذا الداء الدنين لأنه سميع مجيب ، ومن اتكل عليه فلا يخيب . فلما سمع كلامي بكى من عظم جواه حتى تزلزلت أركان أعضائه وأنشد يقول :

يعيشون في ليلى عمري وإنني أعد الليالي من ليلى حراماً ولا حلا
سوى أن حباً لو يشاء أقالها ولم تبتغي خلا لكان لها خلا
ألا حبذا أطلال ليلى على البلى وحبذا نفحات من شمال وإن قلا
فما يتمادى العهد إلا تجددت مودتها عندي وإن زعمت أن لا

فقلت له : ويحك استشعر الصبر ، واستق مودة الحبيب بكتمان الحب . واعلم أنك لا تصل إلى الحبيب إلا بالستر ونفيك الشحة . فإن انتهاك يقطع موارد الغبطة ، وليس للمهتوك ألفة والمستور طويل مدة الغبطة ، فقال :

لقد هم قيس أن يزج بنفسه ويرمي بها من ذروة الجبل الصعب
فلا غرو أن الحب للمرء قاتل يقلبه ما شاء حتماً إلى جنب
أناخ هوى ليلى به فإذا به وسن ذا يطيق الصبر عن محل الحب
فيسقيه كأس الموت قبل أوانه ويورده قبل الممات إلى الترب

قال فأقسمت عليه أن ينشدني أحسن ما قاله في وصف الهجر والنهود والأطراف والخدود فأنشد يقول :

ليل أصبو بالعشى وبالضحى إلى خرد ليست بسود ولا عصل
مشمة الأطراف هيف بطونها كواعب تمشى مشية الخيل فى الوحل
وأعناقها أعناق غزلان رملة وأعينها من أعين البقر النجل
وأثلاثها العليا كأن فروعها وأثلاثها الوسطى كثيب من الرمل
وأثلاثها السفلى براذى ساحل عناقيد تغذى بالدهان وبالعسل
وترمى فتصطاد القلوب عيونها وأطرافها ما تحسن الرمى بالنبل
وزرعن الهوى فى القلب ثم سقينه صبابات ماء الشوق بالأعين النجل
وعايب ما صدن القلوب وإنما النبل ريشت بالفتور وبالكحل
فهم دماء العاشقين مطلة بلا قود عند الحسان ولا عقل
ويقتلن أبناء الصبابة عنوة أما فى الهوى يارب من حكم عدل

فقلت هل لك من مزيد أيها الشاعر المجيد ؟ فقال نعم وأنشد :

ومفروشة الخدين وردا مضرجا إذا جئته العين عاد بنفسجا
شكوت إليها طول ليلى بعبرة فأبدت لنا بالغنج درا مفلجا
فقلت لها منى على بقبلة أداوى بها قلبى فقالت تغنجا
بليت بردف لست أستطيع حمله يجاذب أعضائى إذا ما ترجرجا

قال الرجل ثم قطع شعره وذهب وطلب الهزيمة والهرب ، فاندهلت من أمره ونهضت مسرعا فى أثره طالبا الزياده من شعره ، فلم أدركه إلا بعد الجهد وقد تعلق بحبال نجد فرجعت عنه وقد تعجبت منه .

وحدث رجل آخر من بنى كنانة وهو من أهل الصدق والأمانة ، قال خرجت فى بعض الأسفار أطوى الفيافى والقفار والسهول والأوعار ، فانتهى بى المسير إلى غدير كبير كأنه البحر المستدير فرأيت فى بعض نواحيه جارية كأنها البدر التمام وفى يدها بردة وقصعة مملوءة بالطعام ، فتقدمت إليها وسلمت عليها فردت على السلام بأفصح كلام فبينما أنا أتأمل فيها وأنظر إلى حسن معانيها إذ أقبلت عانة من الغزلان طالبة الماء من ذلك المكان ، وفى أوائلها رجل عريان وهو نحيف الجسم كئيب النفس قد اسود جلده من لفح البرد وحر الشمس فأومأت الجارية إليه وصاحت عليه وأنشدت تقول :

وخير عمائى ان تباعد منزل ... ليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا

فلما سمع كلامها تقدم إليها حتى صار أمامها فألقت نفسها عليه وقبلته وأعطته البردة فأخذها وستر عورته ثم ناولته الطعام، فجلس وأكل وهو يبكى ويتململ، قال الرجل فتعجبت من ذلك غاية العجب، والتفت الى الجارية وقلت لها ياحرة العرب من يكون هذا الغلام وماذا جرى عليه من الأحكام لأنى أرى صفته غريبة وحالته رديئة كئيبة، فقالت هذا والله ياأخى، شقيق ومهجة فؤادى وكبدى وما كانت هذه الصفة صفته ولا هذه الحالة حالته وإنما كان وحيد عصره ونتيجة دهره، مشكور السيرة طاهر السريرة فصيح الكلام رفيع المقام محبوباً من الخاص والعام، وقد اشتهر بالكرم وعلو الهمم ومكارم الأخلاق والشيم، وانتشر صيته بين العرب والعجم، واتفق أنه عشق جارية فافتتن بها وهام، وتواترت عليه الأسقام من كثرة الحزن وقلة الأكل والمنام، حتى انتحل جسمه واعتراه الجنون ومضى عليه مثل ذلك سنون، وهو يهيم مع الوحوش فى البرارى والهضاب ولا يقر له قرار ولا يلتفت إلى خطاب، إذا ذكرت له زالت عنه الوحشة وعاد عقله إليه وذهبت عن قلبه الرعشة قال الرجل ولما انتهت من كلامها التفت إلى المجنون، وقال أيها الرجل المسافر إلى أين أنت سائر، وإلى أية حلة تقصد من حلل العشائر، فقلت له مرادى أن أسير إلى حى بنى عامر أهل المكارم والمفاخر، قال بالله عليك متى إلى تلك المنازل والأعلام أقرىء ليلى منى كثير السلام، وأعلمها بحالى وما شاهدت من أحوالى وبلغها عنى هذه الأبيات وأنشد يقول:

أرى الناس أهلا من تجدد وصله ... فغث وأما من خلا فسمين
تخبرنى الأحلام إنى أراكم ... فيالبت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أخنك مودة ... وإنى بكم حتى المميات ضنين
وإن فؤادى لا يلين إلى هوى ... سواك وإن قالوا بلى سيلين

ثم وثب قائماً على قدميه وأرخى البردة عن منكبيه وصاح صيحة قوية وذهب مع وحوش البرية، فجعلت أخته تبكى وتلطم خدودها وتعض من

شدة الأسف زنودها ، وبكيت أيضاً على صباه وعلى ما أصابه ودهاه ثم ودعتها وجديت فى قطع الهضاب حتى وصلت إلى بنى الحريش قبل الغياب ، فقصدت إلى مضرب كبير وقد حدثتنى نفسى أنه بيت الأمير ، فلما دنوت منه وقفت متفكراً وفى هذا الأمر متحيراً . وإذ قد أقبلت على عجوز من ذلك البيت فقالت من أنت ومن أين أنت فقلت إنى رجل غريب أتيت هذه القبيلة لأجل ليلى خليلة المجنون العاشق المفتون وقد حملنى لها سلاماً وشعراً وكلاماً فهل لك أن تدلينى عليها وترشدينى إليها ، فلما سمعت كلامى قالت أبشر ياوجه العرب ببلوغ الأرب ثم إنها غابت وجاءت بجارية بديعة الجمال كأنها الهلال مسربلة بثوب من الحرير الأحمر وفى عنقها عقد من نفيس الجوهر ، يدهش البصر وعيناها تذرف الدموع وهى تبكى من فؤاد موجوع ، فتقدمت إلى وسلمت على ، وقالت لى أيها الصديق قد بلغنى أنك قد لقيت قيساً فى الطريق فهملك كلاماً تقوله لى فأنى هى ليلى المشئومة عليه والمشتاقة إليه . فبالله عليك حدثنى بحديثه وماكان من أمره . فأنشدتها ماسمعت من شعره فصارت تبكى وتلطم خدودها وتعض من الأسف على زنودها، هذا ، والعجوز تلطف بخاطرها وتضمها إلى صدرها وتقبلها فى وجهها ونحرها ، وقد احتارت فى أمرها ، ثم التفتت إلى بعد حين وتنهدت من قلب حزين . وقالت ياصاحب الهمة العلية وكاشف الغمة والبلية إذا اجتمعت به مرة أخرى فى البرية أهده منى جزيل التحية وأنشده هذه الأبيات :

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع
بنفسى من لايستقل برحله ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

قال ثم إنها أضافتنى وترحبت بى وأكرمتنى فأقمت عندها ثلاثة أيام فى عز وإكرام ثم استأذنت وانصرفت من حيث أتيت وقد تعجبت مما سمعت ورأيت.

(قال الراوى) وكانت ليلى لاتستطعم بطعام ولاتنام بل تقضى ليلها الطويل فى البكاء والعويل ، وتخاصم نفسها باللائمة وتعض على يديها ندامة وندامة ، حتى زال نشاطها وحالها ، وتمكن منها المرض والبلبال . وفى كل يوم تزداد عليها الآلام حتى انقطع صوتها عن الكلام ، وشربت كأس الحمام فكفنها

أهلها ووارروها التراب واكثروا عليها الانتحاب ومزقوا ما عليهم من الثياب .

(قال الراوى) فبينما كان يطوف من مكان إلى مكان وهو كثير الهموم والأحزان إذ مر به فارسان فنعياها إليه وقالا قد حكم الله عليها بالموت وهو كأس ليس لأحد منه فوت، لم يسلم منه ملك شديد ولا جبار عنيد ، فعز نفسك الآن وتب إلى العزيز الرحمن ، واستقبل الأحكام بالرضى واستسلم لموارد القضا وقابل عوارض المحن والضير بما قاله كعب بن زهير :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حـــدباء محمول

قال فلما سمع منهما ذلك الخطاب أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب ، وأخذته الرعدة والاضطراب وغلب عن الصواب وعلا زفيره وشهيقه حتى رق له عدوه وصديقه وأنشد يقول :

أياناعي ليلى بجانب هضبة أما كان يعناها إلى سواكما ويانا عي ليلى بجانب هضبة
من بعد ليلى لا أمرت قواكما ويانا عي ليلى لقد هجتما لنا تباريح نوح في الديار كلاكما
فلا عشتما إلا حليفي مصيبة ولا متما حتى يطول بلاكما وأسلمت الأيام فيها عجائباً
عوتسكما أني أحب رداكما أظنكما لا تعلمان مصيبتي لقد حل بين الوصل فيما أراكما

ثم مضى حتى دخل الحي وهو في غم شديد وحزن ما عليه من مزيد بعد أن كان لا يمر به إلا من بعيد فأتى أهل بيتها فعزاهم وعزوه ، فقال دلوني على قبرها فدلوه ، فلما رآه عظم مصابه ورمى بنفسه عليه . والتزمه من شدة عشقه وجواه وضمه إلى صدره وقد حار في أمره وأنشأ يقول :

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت عليك نساء من فصيح ومن عجـ
ويا قبر ليلى أكرس حملت يكن لك ما عشنا عليها بـ دمه
ويا قبر ليلى أن ليلى عزيزة بأرضك لا خل لديها ولا سهم
ويا قبر ليلى ما تضمنت قبرها سقياً لليلى داعياً ورداكر
ويا قبر ليلى غابت اليوم ذبا وخلتها ما خادعون فا نفه

قال : ثم إنه كان يأتي إلى قبر ليلى ويدور نهاره وهو يرثيها ويندبها حتى جف جلده على عظمه . وضعفت قوته واشتدت بليته . ثم إن رجالا من أهلها أحب لقاءه فنظروا إليه وإلى ناحية قبره ، قال فرجعت

أطلبه فى البراوى بعد أن أرشدنى أهله عليه وقد أفهمونى بأن أنشده بعض شعر قيس بن ذريح وذلك ذريعة الدنو منه إلى أن لقيته قاعداً يلعب بالتراب ، فسلمت عليه وجلست منه بمكان قريب ورد على السلام فقلت له ياصاحب الوجه المليح والكلام الفصيح ما أحسن قول قيس بن ذريح حيث يقول :

وأنى لمفن دمع عينى بالبكا ... حذاراً لما قد كان أو هو كائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى ... بكفى إلا أن ما حان حائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بلية ... فراق حبيب بان أو هو بائن

قال : فبكى بكاء شديدا وسالت دموعه على خده وأنشأ يقول :

لصفراء فى قلبى من الحب شعبة ... هوى لم ترمه الغانيات صميم
به حل بيت الحب ثم انثنى به ... فزالت بيوت الحى وهو مقيم
ومن يتهبض حبهن فؤاده ... يمت ويعش ما عاش وهو سقيم
فإن صادان يذد عن برد مشرب ... وعن بللات الماء وهو يحوم
بكت دارهم من نقدهم وترحلت ... دموعى فأى الجازعين ألوم
أهذا الذى يبكى على الهون ويلا ... أم آخر يبكى شجوه ويهيم
إلى الله أشكو حب ليلى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيم
فقير جفاه الأقربون فضمه ... أسى وفقد الوالدين عظيم
أفى الحق منا أن قلبك دوره ... وقلبى مما قد أجن هيم
إذا ذكرت من أن تزورها ... كأن بين أضلاعى جناح
على هدبها لو إن كان يعلمه ... على البعد فى طول الزمان يبيح
يحن إلى من لو يكون كحبها ... ولكنه حظ لها ونصيب
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وإن حنانا من ذوى البين قربه ... أنى تيأس دون الشوق وهو حبيب

ومنيني حتى إذا ما رأيتني ... على شرف للناظرين قريب
صددت وأشمتت العداة بهجرنا ... أثابك فيما تصنعين مثيب
أبعد عنك النفس والنفس صبة ... بذكرك والمشى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة مظنة ... وأكرمكم أن يسترب مريب
أما والذى يبلو السرائر كلها ... ويعلم ما تبدى به وتغيب
لقد كنت ممن تصطفى النفس خلة ... لها دون خلان الصفاء حجوب
وأنى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب
تلجين حتى يذهب اليأس بالهوى ... وحتى تكاد النفس عنك تطيب
سأستعطف الأيام فيك لعلها ... بيوم سرورى فى هواك تثوب

(وقال) ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية ... إلى آل ليلى أو دنو غروبها
اتضرب ليلى إن مررت بذى الغضى ... وما ذنب ليلى إن طوى الأرض ذيبها
أحل على الرجم إن قلت حبذا ... غروب ثنايا أم عمرو وطيبها

(وقال) فياليت ليلى وافقت كل حجة ... قضاء على ليلى وإنى رفيقها
فتجمعنا من نخلتين ثنية ... يعض بأعضاد المطى طريقها
فألقاك عند الركن أو جانب الصفا ... ويشغل عنا أهل مكة سوقها
فأنشدها أن تحوى لهون والهوى ... وتمنح نفساً طال مطلا حقوقها

وزاره الأعرابى ثانية بعد انصرافه إلى الحى وقد حدثهم بحديث قيس وما أنشده من شعره فوجده على كثيب من الرمال وهو يخط بأصبعه فيه، فدنا وسلم عليه وقال: أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول:

لعمرك ما كبدى وعاودنى رواعى ... وكان فراق لبنى كالخداع تكنفنى الوشاة فأزعجونى
لغير الله للواشى المطاع ... وأصبحت الغداة ألوم نفسى على شىء وليس يستطاع
كمغبون يعض على يديه ... تبين غبنه بعد البياع
إذا ما تذكرين تحن نفسى ... حنين الآلف يطرب للسماع

قال المجنون: بلى والله واستعبر حيناً ثم قال: أنا أشعر منه حيث أقول

ألا يا نسيم الريح حكمك جائز ... على إذا أرضيتنى ورضيت
فيا نسيم الريح لو أن راحداً ... من الناس يبليه الهوى لبليت

فلو خلط السم الزعاف بريقها تمصمصت منه نهلة ورويت

ثم قال إن لم أكن أشعر منه فى هذا فأنا أشعر منه حيث أقول :

وعارصن بالعقيان مفلج به الظلم لم تقل لحن غروب

رضاب كريح المسك يحلو متونه من الضر أو فرخ البشام قضيب

ثم غشى عليه ، فلما أفاق قالت أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

هبونى امرأ أن تحسنوا فهو شاكر لذاك وإن لم تحسنوا فهو صافح

فإن يك أقوام أشاروا بقتلها فإن الذى بينى وبينك فاضح

فقال أنا شعر منه حيث أقول :

وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عنى حين لا لى حيلة وغادرت ماغادرت بين الجوانح

قال الأعرابى : فلما أتم هذه الأبيات ظهرت له ظبية فتعلق قلبه بها ووثب مسرعاً فى طلبها والتفت إلى وقال : السلام عليك فما أراك ترانى بعد هذا أبداً . قال الهلالى : ثم رجعت إلى الحى وقد احترق قلبى بكى ، فأنشدتهم ما سمعته من شعره فكتبوه وأخبروه ما كان من أمره ، فلما كان من الغد بكرت وطلبته وفتشت عليه فلم أقف له على أثر ، فأخذنى القلق والضجر فانصرفت إلى الحى ، حيث أهله وأعلمتهم بالخبر . فقام إخوته ومن يلوذ من أهله وأقاربه فطلبناه يومنا وليلتنا فى القفار والسهول والأوعار ، فلما أصبحنا هبطنا إلى واد كثير الحجارة والرمل ، وإذا نحن به ملقى ميتاً ، بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين :

توسد أحجار المهامه والقفر ومات جريح القلب مندمل الصدر

فياليت هذا الحب يعشق مرة فيعلم ما يلقى المحب من الهجر

فرثيناه وعلت أصواتنا بالبكاء والنحيب وحملناه إلى الحى فبكى عليه الغريب والقريب وكل صاحب وصديق ومن سمع باسمه يوماً ، وتأسف أبو ليلى عليه وندم على عدم زواجه بليلى غاية الندم وقال والله لقد قابلته بالاستخفاف وعاملته بغير الحق والانصاف ، ثم تقدم إليه وضمه إلى صدره وبكى عليه وبعد ذلك غسلناه وكفناه ودفناه إلى جانب قبر ليلى ، رحمهما الله تعالى .

وكان ذلك فى السنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية .

To: www.al-mostafa.com